روايات مصرية للجيب

2

خاطفو الأجساد

سافاري

مقـدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سفريّة) العربيّة .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه فى ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين

لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..



١ـ حياة هادئة نوعًا ..

الحياة دون حميات نزفية !

إنها الجنة بعينها !

صحيح أن هذه الفترات لا تطول كثيرًا فى إفريقيا .. لكن هذا بالذات هو ما يجعلها خليقة بالاستمتاع بها ..

كنا نقضى أيامًا هادئة منتظمة بعد ما زال آخر أثر .. ومات أو شفى آخر مريض بفيروس الـ (كافا ـ موجورو) .. أو ـ تذكرون ـ العيون اللواتى تسيل دمًا .. وبدا أن الحياة تبتسم من جديد ..

★ ★ ★

وفى المساء ـ حين لا أكون نوبتجيًا ـ كنت أقضى الوقت فى حجرتى عارى الجذع بسبب الحرّ الشديد .. أريح قدمىّ على الحائط البارد نوعًا وأرمق مروحة السقف فى عتاب .. إنها ـ تلك الحمقاء ـ تحسب أن الغرض من صنعها أن تحدث ضوضاء لا أن تبردَ الجوّ .. شخص ما قال لها كاذبًا إنها جهاز لطرد الأشباح وليست مروحة ..

أتسلى بكتابة أبيات من الشعر الرديء ، أو أكتب خطابًا لأمي أخبرها فيه أنني لم أمت بعد ، أو أعدّ الدولارات التي أنوي أن أرسلها لها ..

إن طبيعة الحياة هاهنا تسمح لي بالاحتفاظ براتب شهر وإنفاق راتب شهر آخر .. أي أن متوسط ادخاري هو اثنا عشر ألفًا من الدولارات في العام ، تركت لأمي حرية إنفاق ما تريد منه .. لكنني أعرف أمي جيدًا .. وأعرف أنها لن تمدّ يدها على دولار واحد مهما كانت الحاجة تخنقها ..

والطريف هاهنا أنني - وقد بدأت حالتي المادية تتحسن - صرت أكثر زهدًا في المال .. لقد أردته بعنف يومًا ما .. حين ذهبت إلى بيت (نسرين) أطلب يدها .. ولم أفلح ..

أما اليوم - بعد ما ضاعت (نسرين) - لم يعد للمال جدوى .. إنه شبيه بجائزة (نوبل) التي حصل عليها (برنارد شو) في ذروة نجاحه ، فأبى أن يقبلها .. وقال إنه كان بحاجة إليها في الماضي حين كان شابًا فقيرًا .. أما اليوم وبعد ما صار ثريًا فهي أشبه بطوق النجاة الذي يُلقى للغريق بعد وصوله للشاطئ !

عبقرى حقًا هو ذلك الرجل ..

أما عنى أنا فالمال أشبه بطوق النجاة الذى يُلقى للغريق بعد ما شبع غرقًا ، وبعد ما التهمت الأسماك أنفه ، واتخذت الطحالب مأواها فى أذنيه ..

إن المال فتاة لعوب لكنك تهواها .. كلما ناجيتها تركتك وسخرت منك .. فإذا نسيت أمرها عادت تتودد لك فى رقة ..

حاولت نظم قصيدة بهذا المعنى لكنى فشلت .. إن استخدام (الطاء) كحرف روىّ للقافية أمر عسير حقًا ..

★ ★ ★

وبعد تناول الإفطار فى الكافتريا أتجه إلى العيادات الخارجية ..

إنها ـ تذكرون ـ تقع فى الذراع الطويلة لحرف (L) اللاتينى الذى شُيد على شكله مبنى (سافارى) ..

الثامنة صباحًا بالضبط تبدأ الحالات بالدخول لى ، وسط سيل من عبارات السباب التى لا أفهمها والحمد لله لأنها بلغة (البانتويد) .. والسباب يوجهه الممرض الكاميرونى (بودرجا) للمرضى .. ويوجهه

المرضى للممرض .. والسبب لا أعرفه لكنه يتعلق بنظام الدخول حتمًا ..

أجرى كشفًا دقيقًا على كل حالة .. فإذا وجدت أنها تقع في نطاق علمى عالجتها ، وإن أحسست أنها أكبر منى قمت بتحويلها إلى المختص المناسب فى كل فرع من فروع الطبّ ..

ربما تظاهرت بالغباء وقمت بالتخلص من كل مرضاى بإرسالهم إلى المختصين .. لكن هذا لا يطول .. فالكسول أو الجاهل أو المتظرف يفتضح أمرهم سريعًا فى (سافارى) .. وسرعان ما تجد الطبيب المختصّ واقفًا أمامك يرغى ويزبد كالثور .. ويقول :

ـ « أترسل لى حالة التهاب باللوزتين ؟ إما أنك تمزح مزاحًا سخيفًا .. وإما أنك أحمق ! »

عندها تحمرّ أذناك خجلاً .. وتتظاهر بأنك تمزح حتى لا تظهر بمظهر الجهلة .. إن السماجة أفضل من الحمق على كل حال ..

لهذا تجد مسئولية كبيرة على كاهلك .. الخوف من أن تخطئ فتؤذى المريض .. والخوف من أن تخطئ فيلومك المختصّ .. الخوف من الاستهتار بالمرض والخوف من تقديره أكثر من اللازم ..

وتمرّ الطبيبة الكندية الحسناء (برنادت) ، فتلوح بذراعها لى قائلة :

ـ « هاى ! »

وتكوّر أنفها بأسلوب (التشنيكة) كما نسميه فى (مصر) .. فألوح بذراعى أنا الآخر وأردّ تحيتها بخير منها .. ثم أواصل العمل ..

المريض الأول يعانى حكاكًا متواصلاً .. حكاكًا حرمه أيّة قدرة على النوم .. عيناه حمراوان كقدحين من الدم .. ووجهه مرهق متعب .. إن أشياء كهذه تراها بعينيك ولا تحتاج إلى ترجمة الممرض ..

على جسده لا تجد شيئًا ذا بال سوى الخدوش العديدة التى أحدثتها أظفاره .. مئات الجروح الملتهبة .. لكن لا شىء آخر .. ولا يمكنك أن ترى تلك الأنفاق الصغيرة المميزة للجرب ..

فقط هناك نقط سوداء تتبادل مع نقط بيضاء على ساقيه .. والجلد جافّ مجعّد متصلب فى أكثر من موقع ..

التشخيص : لا تشخيص .. إنها واحدة من تلك الحالات الملغزة التى لا أدرى ـ بوصفى شابًا حديث الخبرة ـ كيفية البدء فيها ..

وعلى الورق أخط عبارات تحويل المريض إلى مختصّ الأمراض الجلدية .. ثم أصرفه وآمر بإدخال المريض التالى ..

وبعد دقائق يجىء مختصّ الأمراض الجلدية د. (حشمت خان) ، وهو باكستانى فى الأربعين من عمره .. فأهتف فى هلع :

ـ « لا تقل إنها حالة جرب عادية ! »

ـ « لا ليست جربًا .. »

ثم يشرح لى ما استخفى عنى .. وهو أننا فى (الكاميرون) .. والهرش فى (الكاميرون) له أسباب يطول ذكرها .. لكن ...

ـ « .. إذا لاحظنا الجلد على ساقه لوجدناه يشبه جلد السحلية .. وبطنه مبقّعة كجلد الفهد .. »

صحت وقد أضىء ذلك المصباح فى عقلى :

ـ « .. جلد الفهد .. هل تعنى ؟ »

هزّ وجهه الأسمر فى رزانة .. وقال :

ـ « إنه مصاب بعمى الأنهار .. الـ (أونكوسيركا) .. أرسله إلى المعمل لإجراء عينة من الجلد ثم أعطه بعض الـ (إيفيرمكتين) .. »

وابتسم وانصرف ..

هذا هو طابع العمل لدينا .. كل شيء ممكن وموجود .. لكن هذه الخبرات لا يمكن اكتسابها من الكتب ..

وعمى الأنهار ـ لمن لا يعرف ـ هو لعنة وسط وغرب إفريقيا .. حيث تلدغك ذبابة صغيرة ، فتصيبك بعدوى دودة صغيرة بدورها ، اسمها (أونكوسيركا) .. وسرعان ما يلتهب جلدك وتبدأ فى الحكاك .. ثم يصير مبرقشًا كجلد الفهد مليئًا بالعقد والانتفاخات ..

الجميل فى الموضوع هو أن الدودة لا تترك عينيك وشأنهما إذ سرعان ما تجد طريقها إلى هناك ، وتبدأ عملية تخريب نشطة للشبكية والقرنية .. ويكون العمى هو نهاية المطاف ..

لهذا يسمون المرض باسم (عمى الأنهار) .. وهناك قبائل بكاملها قد كف بصرها ، لمجرد قربها من الأنهار التى تترعرع فيها تلكم الذبابة الشريرة ..

ويوجد هذا الداء بصورة مخففة فى (اليمن) ويحمل اسم (السودة) ، كما أنه موجود فى (أمريكا الجنوبية) ويسمونه (إريثيما دى لاكوستا) ..

كل هذا فى الكتب .. لكنك - صدقنى - لن تعرف أول حالة من عمى الأنهار حين تراها ..

كان هذا هو أول ألغاز اليوم .. ثم توالت الألغاز .. بعضها واضح وبعضها شديد الإبهام .. وأكثرها ليس لغزًا على الإطلاق ..

ولا بد أن الظهيرة كانت قد انتصفت ؛ حين رأيت ما أثار اهتمامى ..

★ ★ ★

صوت سيارة الإسعاف ثم صوت النقالة المعهود .. كليك كراك كليك ! ثم اقتحم المكان أربعة ممرضين سود يجرون - وهم ينحنون كى يصلوا لمستواها المنخفض - تلك النقالة البرتقالية اللعينة ، التى هى هدية من منظمة الصحة العالمية ..

وكان أحدهم يحمل زجاجة من المحلول موصولة إلى الوريد العنقى لما بدا لى كامرأة شابة من الأهالى ..

كانت غارقة فى الدماء .. لكنى أدركت أن ذراعها منزوع تمامًا ..

ولم أحتج لذكاء كثير كى أعرف أن حالة صدمة عنيفة توشك أن تودى بحياتها .. لهذا حقنوها فى



بدا لى كامرأة شابة من الأهالى ..
كانت غارقة فى الدماء ..

الوريد العنقى لأنهم لم يجدوا أوردة فى ذراعها .. هنا لا يكون الوقت وقت الأسئلة .. بل وقت الأفعال ..

صحت فى الممرضة كى تخبرهم بالأمر فى وحدة الطوارئ .. ثم ركضت إلى هناك حيث كان ثلاثة أطباء ألمان يحتسون القهوة .. فما إن رأوا المشهد المريع حتى هبّوا كالملسوعين يحقنون المرأة بمزيد من المحاليل ، وهرعت ممرضة كى تأخذ عينة من دماء المصابة لتجد فصيلة دمها .. على حين حاولتْ منع النزف بربط ما تبقى من الذراع ..

★ ★ ★

لُفّوا فراش المريض سريعًا .. لُفّوا ..

إن الموت يحاول الوقوف عند رأس المريض ..

★ ★ ★

أفرغوا محقنًا من (الإبينفرين) فى قلبها .. وراح جهاز التنفس الصناعى يصدر حفيفه المألوف ..

وتناول (بيتر) الطبيب الشاب قطبى جهاز الصدمات الكهربية ودعكهما فى بعضهما ، ثم أصدر الصيحة المعهودة :

ـ « إخلاء ! »

ولمس بالقطبين صدر المريضة فانتفضت على ذلك النحو المثير للشفقة .. لكن لا جدوى .. لقد توقف القلب تمامًا ..

- « إخلاء ! »

من جديد دوى صوت الصدمة الكهربية لكن لا جدوى .. لقد ماتت ..

★ ★ ★

أخيرًا - وبعد نصف ساعة - من المحاولات المستميتة ؛ عرفنا أن الموت قد كسب المعركة ، وأنه قد وقف عند رأس الفراش ..

ورقدنا على الأرض نلهث .. ملوثين بالعرق والدماء .. وتبادل الألمان بضع كلمات بلغتهم الشبيهة بهدير (المترليوز) .. ثم قال لى أحدهم وهو يرفع خصلات الشعر الأشقر عن عينيه :

- « حظ سيئ .. »

قالها بالإنجليزية طبعًا .. فرددت وأنا أحاول النهوض :

- « نزفت كثيرًا .. ثم الصدمة العصبية .. لا أعرف نساء كثيرات انتزعت أنرعهن بهذه الشراسة .. »

- « حقًا .. »

ثم سأل أحدَ المسعفين الذى وقف يرمق المشهد فى حيرةَ :

- « هل هو أسد ؟ »

لم يفهم المسعف مـا يقول .. فأصدر صوت زئـير من حلقه ليفهمه :

- « أسد .. رواااارررر ! »

هزّ هذا رأسه وقد فهم .. فصاح :

- « (كوبو) .. أسد ؟ لا .. لا .. »

- « إذن هو تمساح ؟ »

هنا قال بضع كلمات بلغـة (البانتويد) لـم نفهمهـا قطعًا ..

قـال (بودرجـا) الممـرض الكـاميرونى مفسرًا لـى وقد رأى الغباء على وجهى :

- « إنه يقول إن روح الأدغال هاجمتها ! »

★ ★ ★

٢ - روح الأدغــــال ..

كنت قد سئمت هذا الهراء الذى نسمعه ليل نهار هاهنــا .. هنــاك الـ (داوا) السـحر الأسود - وروح الأدغال ، وشياطين الأشجار ، وكل ما يمكن تخيّله .. كأن الإنسان لا يموت بالعدوى أو الحوادث أبدًا ..

إن (الكاميرون) تعجّ بـالوحوش .. بـالغوريللا .. بالشمبانزى .. بـالقردة .. بالأسـود .. والمسـتنقعات الرهيبة قرب بحيرة (تشاد) تعجّ بالتماسيح الإفريقية التى لا تفهم المزاح ..

لهذا لم أجد شيئًا غريبًـا أو خارقًا للطبيعـة فـى كل هذا ..

★ ★ ★

كانت الثامنة مساءً .. وكنت أنا فـى الحمام أشذّب لحيتى المحيطة بفمى .. لا بأس بهـا أبدًا .. أولاً هى تريحنى من الحلاقة مع وجـه مـلأه الحرّ والعـرق بالحبوب .. ثانيًا هى تعطينـى مظهرًا موحيًا برهبان العلم ، وتقلل من ملامحى الطفولية التى لا تقنع أحدًا ..

كنت أشذب لحيتى حين دق الباب .. فتحته فى غير حماس فوجدت العامل (دايبلا) الذى حيانى وأخبرنى أن المدير يريدنى ..

وحين يحتاج إلىّ بروفسور (موريس بارتليه) فى الثامنة مساء ، أعرف أن فى الأمر مصيبة ما ، لكننى أعرف دائمًا كيف أخدع هذا الرجل .. فهو يفتقر إلى الحزم ، وثوراته إدعاء أكثر منها حقيقة ..

ارتديت المعطف واتجهت إلى مكتبه ، وفى ذهنى استعرضت المصائب التى ارتكبتها اليوم فلم أجد سوى مريض الـ (أونكوسيركا) ـ عمى الأنهار ـ الذى فشلت فى تشخيص حالته .. واضح أن الباكستانى الثرثار قد اشتكى للمدير ..

وصعد الدم إلى رأسى .. المفترض أننى شاب حديث الخبرة .. والمفترض أننى أتعلم .. فإن كانوا يريدون مستوى أفضل فى استقبال الوحدة فليجلسوا هم مكانى .. أو لينتظروا (ابن سينا) حتى يعمل عندهم ..

أدخلتنى السكرتيرة الفرنسية الحسناء إلى مكتب المدير ، فسألتها وأنا أمسح حذائى فى قماش سروالى من الخلف :

- « هل هى كارثة ؟ هل يطالبون برأسى ؟ »

ابتسمت عيناها من وراء عويناتها وقالت :

- « من ناحية أنها كارثة .. ثق بهذا .. لكنهم لم يطالبوا برأسك بعد .. »

ودخلت على مسيو (بارتليه) الذى كان واقفًا جوار مكتبه .. وهو يجفف قطرات عرق على عنقه المكتنز .. فقلت على الفور :

- « بروفسور (بارتليه) .. إن د.(حشمت خان) يبالغ .. أحتاج إلى بعض الوقت قبل أن أعرف كل أسباب العمى فى (إفريقيا) .. »

نظر لى فى عدم فهم .. ثم غمغم :

- « د. (عبد العظيم) .. حقًا لا أعرف عمَّ تتكلم .. »

- « ألن تلومنى على حالة عمى الأنهار التى ...؟ »

- « ليست لدىَّ أدنى فكرة عن الموضوع .. لكنك تغرينى بأن أجرى تحقيقًا فى هذا الأمر فيما بعد .. إننى أحب أخطاء الآخرين كما تعلم .. والآن أرجوك أن تجلس .. »

اتجهت إلى مقعد جلدى مريح وجلست ..

وحين رفعت عينىَّ رأيت (آلان بارساد) يتأملنى باهتمام ..

وكان انطباعى الأول عن الرجل غير مريح .. فهو ثابت الجنان بطريقة غير معتادة .. وله لحية شقراء نصف محلوقة كأنما أهمل حلاقتها أسبوعًا لا أكثر .. بالإضافة إلى عينيه الخضراوين الوقحتين ، مما جلعه أقرب إلى الذئب .. أو المذءوبين كما كانوا يظهرون فى أفلام الأربعينات ..

قدمه لى المدير :

- « مسيو (آلان بارساد) .. فرنسى من مواطنىَّ .. »

- « الاسم واضح .. »

وصافحت الرجل فأطلق سحابة من الدخان فى وجهى .. وابتسم ابتسامة هى أقرب إلى تكشير الأنياب .. كان فى الخمسين من عمره تقريبًا ..

قال المدير :

- « لنقل إن مسيو (بارساد) من المهتمين بأشياء معينة .. وهو راغب فى رؤية جثة المرأة التى انتزع ذراعها اليوم .. علمت أنك أول من رآها .. »

- « هل هو من المهتمين بالجثث التى فقدت أذرعها ؟ »

- « لنقل ذلك .. »
- « إن بعض الهوايات تبدو غريبة .. »
ونهضت متجهًا للباب :
- « إذن .. يمكنك أن تتبعنى يا مسيو (بارساد) .. »
تبعنى الرجل بعد ما تبادل مع المدير نظرة ذات معنى ..

ونزلنا إلى المشرحة عبر الدهاليز الضيقة سيئة الإضاءة إياها .. وسط رائحة المطهرات المعهودة .. إن رائحة المطهرات المختلطة برائحة الدم لها انطباع قاتم فى النفس .. كأنها رائحة المرض ذاتها .. رائحة الموت ..

أشرت إلى عامل المشرحة الكاميرونى (توالا) كى يفتح لنا الخانة التى بها الجثة .. ورحت أرمق تعابير وجه الأخ (آلان بارساد) وهو يرى الجسد .. لا شىء .. لا تعابير .. إن هذا رجل رأى الموت كثيرًا .. ورأى الجراح كثيرًا فلم يعد يهتم ، إن لم يكن يشعر بالسأم ..

ولكن من هو بالضبط ؟ هل هو طبيب ؟ شرطى ؟ حانوتى ؟

قال وهو يتفحص جرح الكتف :

- « أسنان حادة انتزعت الذراع من موضعه .. ما انطباعك ؟ »

قلت وأنا أهزّ كتفى فى استهتار :

- « لا أدرى .. إن التماسيح تفعل ذلك .. »

- « لكن من جلبوها نفوا ذلك .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. »

قرّب عينيه منى بحركة تمثيلية .. وسأل :

- « ماذا قالوا بالضبط ؟ »

ضايقنى أسلوبه .. يغيظنى هؤلاء الأشخاص الذين يمثلون فى كل لحظة من يومهم .. إنه لا يهتم لكن (يمثّل) الاهتمام .. لا يغضب لكن (يمثّل) الغضب .. وحياته كلها مسرح مستمرّ يستحيل أن تعرف معه من هو ..

قلت له فى ملل :

- « قالوا كلامًا فارغًا عن روح الأدغال .. »

- « هذا هو بيت القصيد .. »

ثم بحركة تمثيلية أخرى صافحنى وهزّ رأسه شاكرًا :

- « شكرًا يا د. (علاء) .. يمكننا العودة إلى بروفسور (بارتليه) الآن .. »

وعدت معه عبر الدهاليز إياها ، وقد قررت أن أصفع كبرياءه صفعة لا بأس بها .. بالطبع هو يتحرق شوقًا كى أسأله عن معنى كل هذا .. لن أفعل .. سأتظاهر بأن اهتمام مخبول بجثة طار ذراعها هو أمر طبيعى جدًا هاهنا ..

بل إننى حييته مودعًا ، وكدت أنصرف لولا أنه نادانى هاتفًا :

ـ « إن بروفسور (بارتليه) يتوقع عودتك لمكتبه .. »

متثاقلاً سمجًا ثقيل الظل كالخرتيت ، تبعته إلى مكتب المدير .. وكان هذا يثرثر فى الهاتف فأشار لنا كى نجلس .. ثم واصل المكالمة .. وفى النهاية وضع السماعة .. وقال لـ (بارساد) :

ـ « لقد كنت أتحدث معهم .. هناك ثلاث حالات أخرى .. »

هز (بارساد) رأسه علامة الفهم .. وكأنه يقول : « ألم أقل لك ؟ »

ثم إن المدير نظر لى وقال فى تؤدة :

ـ « أراك لم تسأل أية أسئلة يا د. (عبد العظيم) .. »

ـ « لست فضوليًا بطبعى .. لا أحب المجازفة بسماع كلمة (هذا ليس من شأنك) ردًا على سؤالى عما هنالك .. »

ـ « هذا سلوك محمود .. يمكنك أن تتصرف .. لكن أرجو أن تبلغنى بكل حالة شبيهة بحالة اليوم ، ولا تبلغ إدارة (الكمبيوتر) عنها قبل أن تأخذ رأيى .. »

وانصرفت .. ولم أنسى أن أنظر نظرة سمجة إلى (بارساد) .. معلنًا أن روحينا ليستا على انسجام من أى نوع ، وأننا لن نغدو صديقين أبدًا .. وفى غرفتى تمددت على الفراش .. وبدأت النيران تأكلنى ..

ما سر هذا الذى حدث منذ دقائق ؟

المشكلة هى أننى فضولى .. فضولى أكثر من اللازم !

★ ★ ★

طفلة من قرية (موجابا) .. تخطو فى خفة نحو عامها الثامن .. هى كأترابها لا تعرف من الثياب سوى العرى ، ولا تعرف عن اللعب سوى اصطناع عرائس من الطين ، ولا تعرف من الطعام سوى الموز المشوى و(الكاسافا) ..

تهرع مع صديقاتها فى رائعة النهار إلى الدغل

القريب .. ويلعبن كما تلعب البنات من كل جنس فى هذه السن : يقلدن أمهاتهن .. يصنعن جرارًا صغيرة من الطين .. ويحملنها ـ حين تجف ـ إلى الجدول .. ويتظاهرن بأنهن يخبزن عجينة الموز ..

ودنت هى أكثر من اللازم من المنطقة التى يكره الكبار أن يدخلوها .. لماذا ؟ لو كانت أكبر سنًا لعرفت أن هذا هو (التابو) بعينه .. منطقة محرّمة يوشك تحريمها أن يكون دينيًا .. ولو كانت أكثر حذرًا لابتعدت .. ولو كانت أذكى لعرفت ما ينتظر فى الظلام هناك ..

نعم .. ظلام .. إن الأشجار الكثيفة السامقة تتشابك غصونها فوق الرءوس ، فتجعل نور الشمس كيانًا غير مرغوب فيه ..

كان هناك ثعبان صغير ينسلّ مبتعدًا وراء شجرة .. شجرة (أوركيد) لو كان الاسم مما يعلق فى ذهن طفلة صغيرة ..

وثمة شىء آخر ينسلّ وراء ظهرها ..

لكنه لا يبتعد ..

بل هو يدنو منها .. يدنو باستمرار ..

ولم تجد وقتًا كافيًا للصراخ ..

★ ★ ★

٣ - جراحة عاجلة ..

إنه لن يخبر أهلها ......

هكذا قرَّر (ماكوبكا) وهو جاثٍ على ركبتيه يتأمل العشب الملوث بالدماء الطازجة .. وتحسس البندقية في توتر فقط كي يتأكد أنها في متناول يده ..

كان (ماكوبكا) هو أقوى وأشجع رجال القبيلة .. كتلة عضلات سوداء تمشى على قدمين .. وكان يعرف قصصًا كثيرة عن أشياء معينة تحدث للحمقى الذين يتوغلون في الغابة أكثر من اللازم .. لكنه لم ير شيئًا طيلة حياته ..

وحين هرع الأب والأم الملهوفان يبحثان عن صغيرتهما ، كان (ماكوبكا) الشهم هو أول من فكرا فيه .. وعلى الفور حمل (ماكوبكا) بندقيته وارتدى قميصه المهلهل وحذاءه المطاطى الذى ابتاعه من أحد رعاة (أداماوا) منذ ثلاثة أعوام ، وسرعانٍ ما لحق به ثلاثة رجال كي يستكشفوا الدغل الذى فُقدت فيه الطفلة ..



إنه لن يخبر أهلها . . .
هكذا قرر (ماكوبكا) وهو جاث على كبتيه يتأمل العشب الملوث بالدماء . . .

ولم يطُل بحث (ماكوبكا) .. فقد وجد خيط الدم أولاً .. ثم وجد القدم الطفولية الصغيرة .. وعرف على الفور أنه لن يخبر أحدًا بما وجده رحمةً بالأبوين ..

واصل البحث بعض الوقت ويده تتحسس البندقية .. لكن خيط الدم لم يعد ظاهرًا ، والأعشاب كانت تزداد تشابكًا مما جعل المهمة شبه مستحيلة ..

لذا عاد من الأحراش راسمًا علامات الحيرة على وجهه .. وحين قابله الأب سأله ملهوفًا عن الصغيرة .. فقال وهو يهزّ رأسه :

ـ « لا أثر .. الفتاة خطفتها الأرواح على الأرجح .. »

★ ★ ★

إلا أنه ـ في المساء ـ جلس جوار زعيم القرية في كوخه .. مدّ يده إلى كيس قماشي ، وأخرج منه الشيء الوحيد المتبقي من الطفلة .. وقال :

ـ « ما رأيك في هذا أيها الزعيم ؟ »

كانت النيران تترقرق على وجه الزعيم الصارم ، وهو يتأمل الشيء في اهتمام .. ثم غمغم وهو يعيده إلى الكيس :

ـ « أحسنت بعدم إخبارهما .. »

ثم همس وهو يتلفت حوله :
ـ « لا بد أنها لبؤة عجوز وهنت قواها أو تساقطت أسنانها .. »

وهذا شيء يحدث من آن لآخر .. فالنمر والأسد لا يهاجمان الإنسان أبدًا إلا حين يصيران عاجزين عن صيد فرائس أقوى وأسرع .. عندها يكتشفان أن الإنسان شهى المذاق .. بطيء الحركة .. لا يملك القدرة على الدفاع عن النفس ..

وسرعان ما يبدأ برنامج الرعب .. ويصير الإنسان هو الصنف الأساسى فى قوائم الطعام .. وغالبًا ما يكون ذلك الإنسان عجوزًا أو طفلاً لأن كلاً منهما لا يملك الدفاع عن نفسه ..

والمذهل فى هذه المشاهد الرهيبة هو ـ كما يقول من يرونها دائمًا ـ قلة آثار العنف فى مكان الحادث .. لا توجد دماء ولا آثار معركة ولا شيء .. إن من تفترسهم الأسود يختفون فحسب .. والسبب هو أن الوحش يمزق أوردة العنق أولاً ثم يجر فريسته إلى الأحراش ليلتهمها ، وقد صارت جثة عاجزة عن المقاومة ..

قال (ماكوبكا) بلهجةِ خبير :

ـ « لكن الأبقار لم تُمسّ فى حظائرها .. لو كانت لبؤة عجوز هى المهاجم لبدأت بقتل أبقارنا .. هذا ما يحدث دائمًا .. »

ـ « إذن هى روح الأدغال .. »

ـ « لكن ذلك لم يحدث منذ عام الجفاف .. »

ـ « لكنه يحدث من آن لآخر .. ربما كان هذا هو الآن .. »

ـ « وماذا نفعل ؟ »

ـ « نصمت .. قل لأهل القرية أن يحكموا الرقابة على أبنائهم .. وألا تتوغل نساؤهم فى الدغل ، ولا يقصدن النهر فرادى .. »

وصمت الرجلان .. كانت الأفكار تثقل ذهنيهما .. لكنهما لن يجدا لها إجابة فى الوقت الحالى ..

★ ★ ★

بالطبع لم أعرف شيئًا من هذا وأنا أمارس عملى فى (وحدة سافارى) ..

ومن حين لآخر أجلس مع (سباتزانى) الجراح الإيطالى العظيم ، الذى كنت معجبًا به بشكل خاص ..

الحظ كل الحظ هو أن يختارنى كى أعاونه فى إحدى جراحاته ..

ولم تكن معاونتى لـه رسمية .. لأنى لم أبدأ تخصصى بعد .. لكن روحينا كانتا على نفس الموجة .. لهذا كان يرتاح لى كما أرتاح له .. والغريب هنا أنه لا يبدو كطبيب .. بل هو أصلع لـه بطن ضخم وروح مرحة صاخبة ، يذكرنى على الفور بـ (البارمان) الإيطالى فى الأفلام العربية .. حتى لأتوقع فى أية لحظة أن يقول : (يا خبيبى) أو (على حساب المخل) .. .

وفى ذلك اليوم كنت ذاهبًا إلى قسم الجراحة لأراه .. فوجدت فوضى لا بأس بها ، وكان واقفًا فى المغسلة يعقم يديه .. فما إن رآنى حتى هتف :

ـ « مرحى ! (علاء) .. هلم ابدأ التعقيم سريعًا .. فإن جراحة عاجلة على وشك البدء .. لا يوجد من يعيننى فى هذه الساعة .. »

ثم انفجر يصدر سيلاً من التعليمات الإيطالية للممرضة التى هى من نفس جنسيته .. وارتدى ثوب الجراحة الأزرق ، ثم دس يديه فى القفازين المطاطيين

اللذين فتحتهما لـه ، بتلك الحركة الخطافية القانصة التى لن أتعلمها أبدًا وإن كانت تبهرنى دائمًا ..
فرغت من التعقيم فوضعت قناعى ، وبالطبع أخذت القفازين من الممرضة لأرتديهما بالطريقة العادية .. على مهل .. واحدة واحدة ..
صاح وهو يهرع إلى مسرح العمليات كما يسمونه :
- « أسرع ! إن المريض سيموت ويتعفن قبل أن تفرغ من إدخال يدك اليمنى فى القفاز .. مام ماميا ! »
زادنى هذا ارتباكًا وتوترًا .. لكنى لحقت به على الفور ..
وحول الجسد الراقد على المنضدة رأيت الممرضة الإيطالية (باولا) .. وطبيب تخدير إيرانيًا يدعى (آرداش) .. حيانى بعينيه من وراء القناع ثم واصل تثبيت أنبوب القصبة الهوائية فى جهاز التنفس الصناعى ..
- « كم الضغط عندك ؟ »
- « ٧٠/٥٠ .. لن ينزف كثيرًا .. لكنى سأحسن الوضع قليلاً ريثما تبدأ .. »
دارت المحاورة بالطبع بفرنسية رديئة جدًا ..

فلغة التفاهم الدولية فى (سافارى) هى الفرنسية .. وكم تمنيت لو كانت العربية ..

بعين فضولية نظرت لأرى ما يدور الكلام عنه ، فرأيت قدمًا مبتورة وقدمًا توشك على ذلك ، وقد تم ربطهما عند الفخذين برباطين ضاغطين لتقليل النزف ، إذن فالجراحة هى تنظيف كل هذا مع محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

ـ « أعطوه مصل (التيتانوس) و (الغنغرينا) الغازية حالاً .. »

ثم تفكر قليلاً وهو يعد المجال لعمله .. فأضاف :

ـ « وجرامًا من (السيفوتاكسيم) فى الوريد .. »

و(التيتانوس) هو المرض المريع الذى يصيب أصحاب الجروح الملوثة .. ومثله (غنغرينا) الغاز التى تجعل الجروح تتعفن إلى حد قتل أصحابها ، وكلاهما تسببه باكتريا متشابهة إلى حد كبير .. أما (السيفوتاكسيم) فهو مضاد حيوى لا بأس بمفعوله ..

سألته وأنا أزيح بعض الأنسجة جانبًا !

ـ « توجد كثير من الأطراف المبتورة هذه الأيام .. »

ـ « مبضع ! »

قالها بلهجة آمرة ، مما دلّنى على أنه متوتر حقًا .. ولا يجد وقتًا كافيًا للتعليق .. لهذا آثرت الصمت ..

ـ « كم الضغط عندك ؟ »

ـ « يتحسن .. »

قالها طبيب التخدير الإيرانى .. وتنهّد تنهيدة الخلاص .. ورأيته يعلّق كيسًا مليئًا بالدمّ بعد ما فرغ الأول ..

قام (سباتزانى) باستنقاذ ما بقى من الساق اليسرى .. فقد كانت الأوعية الدموية سليمة ، ولم تكن لدينا الوسائل التى تسمح بجراحة أوعية مجهرية .. وحين وخز الساق بإبرته فسال منها الدم ؛ رأيت شبح ابتسامة خلف قناعه .. وغمغم :

ـ « (بينى) ! »

أى (كويّس) بالإيطالية .. فمعنى وجود نزف أن الساق تحظى بإمداد وعائى جيد .. أما الساق الأخرى فلم يكن لها وجود .. لكنه راح يكمل ما بدأته الطبيعة .. يستكمل البتر بشكل نظيف أنيق يحافظ على ثنيات الجلد ويمنع العدوى ..

إن جراحات الاستئصال كثيرة .. لكن البتر بالذات

جراحة غير مبهجة على الإطلاق حتى بالنسبة لأقسى الجراحين قلبًا .. وقد عشت هذا الجو الكئيب الجنائزى مرارًا ، فأدركت أن حظى ليس على ما يرام اليوم ..

رحت أرقب أصابعه السحرية تعقد الخيط بتلك السرعة المذهلة التى لا يمكن أن تصدقها مالم ترها ..

وفى هذه اللحظة صرخ طبيب التخدير :

- « لحظة ! توقف ! »

رفع نحوه (سباتزانى) عينين متسائلتين .. فقال هذا :

- « هل جرحتما شيئًا فى أثناء العمل ؟ »

- « طبعًا لا .. لماذا ؟ »

- « لا أدرى .. إننى ..... »

وبالفعل كانت الدماء تجرى زرقاء بين أناملنا .. وبعد قليل كفت عن التدفق من الأوعية الدقيقة المفتوحة .. وهى علامة يعرف بها الجراحون أن المريض ليس على ما يُرام ..

أفرغ طبيب التخدير محقنين فى القناة الوريدية .. ثم عاد يصغى بالسماعة .. يقيس الضغط .. ولمحت قطرات العرق على جبينه ..

هتف الجرّاح الإيطالى فى نفاد صبر :
- « ماذا يحدث عندك ؟ »
- « إننى أفقده .. ولا أدرى السبب .. »
- « هل هى صدمة حساسية ؟ إن مصل (التيتانوس) ......»
- « كلا .. لقد تأكدنا من ... ربّاه ! إن قلبه يتوقف .. »
وراح يمارس طقوس الإنعاش المعهودة .. لكن لا جدوى ..
وحين أنزل (سباتزانى) قناعه عن وجهه ، ونزع قفازيه ورماهما فى ركن الغرفة ، وحين راح يسب بالإيطالية ..
عندها فقط أدركت أننى أرى الموت معنا فى الحجرة ..
كان واقفًا عند رأس المريض ...

★ ★ ★

غادرنا غرفة العمليات منهكين ..
وتساءلت بصوت مبحوح عن سبب وفاة المريض .. فقال الجرّاح :

- « صدمةٌ عامةٌ .. هل تجد سببًا أفضل ؟ »
- « أعرف .. لكن ما سببها ؟! »
- « لا أدرى .. لقد كانت الأمور تتحسن .. ثم ... »
وهنا استدرك فقال :
- « إنه السمّ .. الوحش الذى مزّق قدميه كان يحمل السمّ فى أنيابه ومخالبه .. »
- « لا توجد تماسيح ولا أسود سامّة .. والأفاعى لا تمزّق فرائسها .. »
نظر لى .. وابتسم .. وقال :
- « من تحدث عن تماسيح وأسود ؟ »
وأشعل لفافة تبغ .. القداحة لا تشتعل .. رماها جانبًا ، وأمر أحدهم أن يحضر له علبة ثقاب .. ثم أردف :
- « يا بنى .. أنت عديم الخبرة حقًّا .. »
ورفعت عينى نحوه متسائلاً .....

★ ★ ★

٤ـ لا توجد سحال سامة هاهنا ..

- « بروفسور (بارتليـه) .. أعرف أننى أيقظتك من نومك .. وإننى لذلك آسف .. لكنك طلبت منـى ألا أتأخر فى إبلاغك أية تفاصيل عن حالات تشبه حالـة أمس .. »

« الحق أن الأمر مريب يا سيدى .. قلت إن هنـاك ثلاث حالات .. ثم تلك المرأة .. واليوم ذلك الرجـل .. إن هذا أكثر من اللازم إذا أردت رأيى .. »

« كلهم يموتون يـا سيدى .. يموتـون بـلا تفسير لموتهم .. إن الصدمة العصبية والنزفية لتفسير جيد لكنه لا ينطبق على كل هذه الحالات بالتأكيد .. خاصـة أننا لم نأل جهدًا فى إنقاذهم .. »

« الأهالى ؟ لا يقولون شيئًا .. يتحدثـون عن روح الأدغال هذه أو يتطيرون ويأبون الكلام .. »

« يخيل إلى يـا سـيدى أنهـم يعرفـون أكـثر ممـا يظهرون .. »

« البروفسور (سباتزانى) يؤمن بوجود وحش يجمع بين السمّية والافتراس فى الدغل .. ويقول إن الجمع بين هذين لا يوجد إلا فى أنواع معينة من السحالى المفترسة .. »

« إنه يعتقد أن خللاً بيئيًا ما أدى لتوحش هذه الكائنات التى لم نعرف أنها موجودة فى (الكاميرون) من قبل .. وتوحشها جعلها تظهر .. وتظهر أعمالها واضحة للعيان .. »

« يبدو لى هذا عسيرًا .. لكن بروفسور (سباتزانى) يعرف ما يتحدّث عنه بالتأكيد .. وعلى كل حال لقد طلبنا من المعمل أن يحلّل سوائل الجثث بحثًا عن شىء ما .. »

« حسن يا سيدى .. سأوافيك بتقرير مفصّل عن رأى المعمل فى كل هذا .. لكنى أقترح إبلاغ السلطات فى (أنجاوانديرى) علها ترسل لنا حملة صيادين .. »

« إن بعض الرجال المسلحين بالبنادق الآلية وبعض الكلاب المدرّبة يمكنهم إنهاء هذا الكابوس بالتأكيد .. »

« شكرًا سيدى .. أعرف هذا .. لكنى أرجو التحرك

سريعًا لأن الغد قد يحمل لنا جثة جديدة مبتورة الأطراف .. »

« .. وأنا كذلك .. عمت مساء يا سيدى »

ووضعت سماعة الهاتف ، ثم استرخيت فى فراشى أرمق السقف فى توتر .. ولم أدر متى نمت لكنه كان نومًا مريعًا ..

أنا لا أتذكر أحلامى أبدًا .. ولولا تأكيد علماء وظائف الأعضاء لقلت إننى لا أحلم .. لكنى فى هذه الليلة صحوت مرارًا شاعرًا بأن وحشًا أسود هائل الحجم (يشبه الثور العملاق) يمسك بيدى بين أنيابه ويحاول انتزاعها ، وكالعادة لم أكن قادرًا على الصراخ ..

و ....

* * *

فى الصباح - قبل بدء جولة العنابر - مررت على البروفسور (آرثر شِلبى) - بكسر الشين - فى مكتبه ..

ولمن لم يقرءوا الكتيب الأول ؛ أكرر أن (شِلبى) أستاذ طب مناطق حارة ، أمريكى .. خبيث كالشيطان ، لكنه مفيد دائمًا بما لديه من علم .. وهذه هى قاعدة

تعاملى فى (سافارى) : هناك أفاع عليك أن تتعامل معها لتظفر منها بالسمّ - وسمّ الأفاعى له منافع طبية عديدة - وكان (شِلبى) أفعى لا بد من الحذر فى حلبها ..

- « صباح الخير سيدى .. »

- « صباح ...... »

كان يدخن سيجارًا غليظًا ذكّرنى بإصبع مشتعل من (الكُفتة) .. وكان شعره الأشيب يغطى إحدى عينيه .. وقد تدلّت عويناته على قصبة أنفه وهو يطالع العدد الأخير من (الجريدة الأمريكية لطب المناطق الحارة) ، حيث نشر ورقته البحثية الأخيرة ..

- « هل توجد سحال سامة فى (الكاميرون) ؟ »

- « حتمًا لا .. »

ثم فتح إصبعين ليعدّ عليهما :

- « يوجد نوعان لا أكثر من السحالى السامة فى العالم ، وينتميان إلى جنس (الهيلو درما) .. وحش (جيلا) الموجود فى جنوب غرب الولايات المتحدة ، والسحلية المكسيكية .. وأطولهما لا يتجاوز طولها ثمانين سنتيمترًا .. وتكون شرسة جدًا فى عضها ..



كان يدخن سيجارًا غليظًا ذكَّرنى بإصبع مشتعل من (الكُفتة) . . وكان شعره الأشيب يغطى إحدى عينيه . .

بل إنه من المستحيل انتزاعها من اللحم لقوة فكيها(*) .. »

اقشعر جلدى لتصور سحلية تنشب أنيابها فى لحمى .. ويحاول الناس شدها فلا يقدرون ..

سألته :

- « وكيف ينزعونها إذن ؟ »

لوّح بالطرف المشتعل للسيجار وقال :

- « لا حلّ سوى النار .. يلسعون أسفل ذقنها بسيجار مشتعل ، ومن ثم ترخى قبضتها .. »

- « وماذا يحدث لمن تعضه ؟ »

بدا كأنه يتذكر هنيهة .. ثم قال :

- « لا وفيات .. مجرّد ألم شديد .. تضخم فى العقد اللمفاوية .. ضعف .. عرق .. انخفاض ضغط .. قئ .. لكن لا أكثر من هذا .. »

- « والعلاج ؟ »

- « لا علاج .. ولا ترياق لهذا السمّ .. وهو - بالمناسبة - غنى جداً بمادة (سيروتونين) »

ثم ابتسم فى فضول .. وسألنى :

(*) حقيقة ..

- « هل تشك فى حالة تسمم حيوانى ؟ إنه تفكير مبالغ فيه حين تبحث عن السحالى .. »

لم أرِد أن أخبره بما هو أكثر .. ففى كل مرة يجد فى كلماتى البريئة ما يصلح لأن يؤذينى أو يعايرنى به .. لذا قلت فى اقتضاب :

- « لا هذا ولا ذاك .. مجرّد فضول علمى »

وفارقتَه قبل أن يسألنى أكثر ..

الحق أن الرجل لدائرة معارف تمشى على قدمين ..

★ ★ ★

حسن .. يمكن استبعاد السحالى إذن ..

فلا توجد سحالى سامة فى (الكاميرون) .. ثم - إن وجدت - فهى غير قادرة على انتزاع ذراع امرأة أو ساقى رجل ، حتى لو كان طولها مترًا ..

يبدو أننى فى طريقى للاعتقاد بروح الأدغال أنا الآخر ..

★ ★ ★

وفى طريقى إلى المعمل قابلت (برنادت) ، فحيتنى بـ (التشنيكة) الشهيرة ، ولوحت بذراعها .. وسألتنى :

ـ « إلى أين العزم ؟ تبدو كمن أكل فأرًا ! »
ـ « أريد نتيجة تحليل ما .. إنه الفضول العلمى كما تعرفين .. »
ودخلت معى إلى المعمل حيث وقفت مستندة إلى الحائط ، ويداها فى جيب معطفها وقد ثنت إحدى الركبتين .. وقفتها المميزة التى تذكرنى - كما قلت لها - بوقفة محاربى (البوشمان) البدائيين ..
وجاء د.(أوكازو) طبيب المعمل اليابانى ، فحيّانى ثم بدأ يقرأ التقرير الذى أعده والذى لم يطبعه بعد :
ـ « الدم يحوى سمًا بروتينيًا به عناصر مألوفة مثل (الهيموراجين) والـ (إيكين) .. أى أنه سمّ نزفى شبيه بسمّ الأفاعى .. بل إنه أقرب إلى سمّ الأفاعى الهندية بالذات .. »
سألتنى (برنادت) دون أن تبدل وقفتها :
ـ « هل تبحث عن أفعى هندية فى (الكاميرون) ؟! »
ـ « هذا من حقى على ما أظن .. »
قالت فى جديّة :
ـ « أعتقد أننى أعرف ما تتحدث عنه ! »
ـ « أحقًا ؟ »

- « فى عيادة الأطفال صرنا نرى حالات تسمم أكثر من اللازم .. توجد عضة بشعة فى جسد الطفل .. والأهالى ...... »

- « يرفضون الكلام أو يقولون شيئًا عن (روح الأدغال) .. »

- « بالضبط .. إننا نتحدث عن الشىء ذاته .. »

- « والأطفال ؟ هل يمكن استجوابهم ؟ »

- « للأسف لم يعش طفل واحد من الثلاثة الذين رأيتهم .. وعندها يأخذ أهله الجثة ويرحلون .. »

- « يا للهول ! »

- « لا بد من تفسير .. »

وكنت أعرف أن التفسير هناك عند البروفسور (بارتليه) ..

★ ★ ★

فى الآن ذاته كان (ماكوبكا) قد أزمع أمرًا ..

دخل كوخه الطينى وفتش عن الصندوق الذى يحوى الذخائر ، حشا بندقيته بالرصاص ، ودس الخنجر فى سرواله ..

إنه لن يترك ذلك الخطر يحوم حول القرية ..

المشكلة مع الآخرين كانت أنهم أبطأ مما يجب .. أو أغبى مما يجب .. أو أضعف مما يجب ..

أما هو ـ (ماكوبكا) ذو الذراع الشهم ـ الذى انتزع لسان (ابن آوى) من حلقه حين هاجمه ؛ فيعرف ما ينبغى عمله ..

اليوم لن تكون هناك أغلاط .....

★ ★ ★

٥ - آلان بارساد ..

توغل مسافة نصف ميل فى الدغل ، ولو لم يكن الوقت نهارًا ويكن هو خبيرًا فى الأدغال لأصابه الذعر ، ولضلّ طريقه إلى يوم الدين ..

كان الصمت شاملاً .. وثمة أسرة من الغوريللات تجلس فى ظلّ الأشجار تمارس حياتها الاجتماعية المألوفة .. فقط رأته إحداها وهو يزحف فأطلقت خوارًا قصيرًا وعادت تلتهم العشب ..

إن الغوريللات حيوانات خجولة بطبعها تمقت أن يراها أحد ..

وفى الظلال توجد ثمار غريبة تتدلّى من غصون الأشجار .. لكنها ليست ثمارًا بالضبط .. إنها وطاويط .. وطاويط تغفو بعد سهر الليل المضنى ..

واصل مسيرته وهو يمزّق الغصون المتشابكة بخنجره ..

والآن يمكن القول إن أحدًا من مواطنيه لم يتوغّل

فى الغابة إلى هذا الحدّ .. ولو كان مثقفًا لقال إنها (أرض اللا بشر) ..

الشىء الذى جعله يعرف أن اتجاهه صحيح هو الأشلاء .. نعم أشلاء حيوانات متناثرة من حين لآخر .. ساق وعل .. فئران منهوشة .. وكلها تحمل ذلك الطابع المميز الذى لا يُوصف ، والذى رآه فى قدم الطفلة ..

ثم سمع زئيرًا من وراء ظهره ..

زئيرًا جعل الدم يجمد فى عروقه .. وقلبه يثب ..

لقد كان مخطئًا ..

إن أسدًا مجنونًا هو من فعل هذا كله ..

★ ★ ★

دخلتُ مكتب المدير فى حماس ، وقد أزمعت أن أفعل أشياء على غرار الصراخ وضرب المكتب بقبضتى إلى آخر هذه الأشياء ، مع رفع يدىّ بطريقة مسرحية لأهتف :

- « ولكن هناك تفسيرًا بحق السماء لكل هذا .. »

لكن ما إن سمحت لى السكرتيرة بالدخول ؛ حتى فوجئت بالمدير جالسًا فى مكتبه وأمامه ذئب آدمى بدا مألوفًا لى ..

آه ! إنه ذلك الفرنسى السمج .. ماذا كان اسمه ؟

قال المدير مبتسمًا :

- « ادخل يا (علاء) واجلس .. أعتقد أنك ومسيو (بارساد) متعارفان .. »

هززت رأسى أن نعم وجلست :

- « إن (بارساد) هذا قد صار متوافرًا أكثر من اللازم .. لن أدهش لو وجدته فى قبرى يوم أموت وأدفن .. ولكن من هو بالضبط ؟ »

قال المدير :

- « لم تبلغنى بعد بنتيجة تقرير المعمل عن جثة أمس .. »

- « سمٌ بروتينى .. يقولون إنه يشبه سمّ الأفاعى الهندية .. »

- « جميل .. جميل .. »

أشعل (بارساد) لفافة تبغ ، وأدركت أن المدير يحترمه حقًا .. فهو لا يطيق المدخنين ويحرجهم بأسوأ الطرق الممكنة ..

قال (بارساد) وهو ينفث سحابة خانقة فى وجهى :

- « وما رأيك ؟ »

قلت وأنا أسعل :

ـ « يوجد شىء ما لعين فى الدغل .. يحتاج الأمر إلى من يدخل ويقتله .. »

ـ « هذا هو بيت القصيد .. »

قالها للمرة الثانية منذ التقينا فأدركت أنها من لوازمه اللغوية ..

وراح المدير يفسر لى الأمر بتؤدة :

ـ « لقد جاء مسيو (بارساد) مسافة طويلة إلى هنا ، ومعه توصية من وزير الصحة الفرنسى ، ومن إدارة الأمن هنا ، ومن وزارة البيئة فى (ياوندى) .. والغرض هو البحث عما يُدعى بـ (روح الأدغال) ..

ـ « هل هو عالم أحياء ؟ »

ـ « بل هو صياد .. صياد محترف .. وهو شهير فى (فرنسا) إلى حد ما بالنسبة للمهتمين بالصيد ، وكتبه ذات مرجعية أساسية فيما يتعلق بإفريقيا .. إن الرجل ـ والحق يقال ـ يعرف إفريقيا .. »

ابتسم (بارساد) فى سماجة وقال :

ـ « لنقل إننى (رافاييل متى) الجديد .. هل تعرفه ؟ »

بالطبع كنت أعرف (رافاييل متَى) الفرنسى حامى الحيوانات البريةَ .. والذى أُطلق عليه المواطنون اسم (كونغو ماسـا) .. والذى قتلته قبائل الـ (ماساى) حين تطفل عليها فى أثناء عيد دينى لها(*) ..

لذا قلت :

- « إن (رافاييل متَى) كان يحمى الحيوانات من الانقراض .. لكن من الواضح أنك تساعدها عليه ! »

قال (بارساد) فى ثبات :

- « لم يعد الصيادون كما كانوا فى إفريقيا .. صورة الحملةَ المكونةَ من الزنوج يتقدمهم صياد أبيض يحمل بندقيته .. إن عملنا اليوم هو خلق نوع من التوازن البيئى .. نحافظ على الحيوانات المهددَة بالانقراض ، ونتخلص من الأنواع الخطرة التى تهددَ الأهالى .. »

قلت له وأنا مصممَ على مضايقته :

- « لا بد كذلك أنك كنت تعمل مع البريجادير (ونجيت) فى الستينات .. لا بد أنك كنت فى العشرين من عمرك وقتها .. »

(*) حقيقة ..

ابتسم وهزَ رأسه قائلاً .. وهو ينفث مزيدًا من الدخان فى وجهى :

ـ « أنت واسع العلم حقًا .. إن هذا هو بيت القصيد .. »

وكان معنى كلامى أنه واحد من المرتزقة الذين تعجَ بهم إفريقيا .. والذين يتم استئجارهم من وكالات التأجير فى شارع (سلون) فى (لندن) .. وكان أشهرهم فريق البريجادير (وينجت) .. وفريق الكولونيل (سترلنج) .. وقتها كان سعر المرتزق الواحد خمسة آلاف جنيه استرلينى(*) ..

إن المرتزقة والصيادين وتجار السلاح يتشابهون فى إفريقيا ..

قال المدير محاولاً إنهاء هذه المحادثة السامة :

ـ « إن مسيو (بارساد) جاء بحثًا عن (روح الأدغال) هذه .. وقد جمع عشرات الصور والبقايا والآثار .. ولديه كل ما يدعوه إلى الاعتقاد بوجود الخطر قرب قرية تدعى (موجابا) .. إنها قريبة جدًا منا .. وهذا يفسر تزايد حالات بتر الأطراف ..

(*) حقيقة .. وكقاعدة : كل ما نذكره فى (سافارى) حقيقى ما لم نقل غير ذلك فى الهامش .

دعك من الحالات التى لم نرها قط والتى هلكت فى الدغل .. »

قطبت جبينى محاولاً التذكر :

- « (موجابا) ؟ لم أسمع هذا الاسم قط .. »

★ ★ ★

(موجابا) ؟ كيف لا يعرفها أحد ؟

إنها بلد (ماكوبكا) - ذى الذراع الشهم - الذى يقف الآن فى الدغل وحده ، يقبض على بندقيته بتوتر ويستدير ..

إن صوت الزئير القادم من الخلف لا يمكن ألا يكون إلا لأسد عجوز .. وكان يعرف - وهو يستدير - أن الوثبة ستكون أسرع منه .. وأنه لن يجد مجالاً يرفع فيه فوهة بندقيته بينما الوحش يجثم فوقه ..

لكنه لم ير شيئاً من هذا ..

كان هناك أسد عجوز حقًّا .. لكنه راقد على الأرض يحاول الزحف .. وقائمتاه الخلفيتان مجرورتان خلفه .. كانتا مليئتين بالجراح كأنما نهشتهما الشياطين ..

كان الوحش المسكين يزحف وخلفه خيط من الدماء ،

وهو يزأر زئيرًا أليمًا .. لكنه ـ كذلك ـ خطر .. الأسد الجريح قوة كاسحة لا يستطيع وقفها إلا الموت ..

دنا منه (ماكوبكا) .. وتأمله ـ من مسافة مأمونة ـ فى شفقة .. ثم فعل الشيء الوحيد الذى يمكن عمله سواء كنت ملاكًا أم شيطانًا ..

رفع فوهة البندقية وسددها بين عينى الوحش .. وأغمض عينيه وضغط الزناد .. و .. بوم !

تردد صوت الطلقة فى الأدغال ، فحلقت الطيور فارة وتصايحت القردة .. وفاحت رائحة البارود ..

★ ★ ★

ـ « رائحة كريهة حقًا ! »

قلتها وأنا أتشمم الخرقة التى ناولها لى (بارساد) .. ثم أضفت :

ـ « لكنها رائحة غير مألوفة .. »

قال وهو يعيد الخرقة إلى الكيس البلاستيكى :

ـ « هذا هو أول أثر وجدته .. كان لعاب ذلك الكائن يلوثها بعد ما فرغ من تمزيق البائس الذى كان يرتدى هذا القميص .. »

ثم أخرج من مظروف أمامه عددًا من الصور



رفع فوهة البندقية وسدّدها بين عينى الوحش ..

الفوتوغرافية ، وقدمها لى فرحت أقلبها بين يدىّ ..

كانت تحوى ألعن مجموعةً من صور الأشلاء ، التى لا يفخر بحيازتها أى كتاب للطب الشرعى فى العالم .. أما آخر صورتين فكانتا تظهران شيئًا ما .. وهذا هو أدق وصف له ..

- « هذا هو ما رأيته يتحرك فى الدغل فجر أحد الأيام ، قرب نهر يُدعى (كرا - آل) .. وقد ظفرت بصورتين .. »

- « كنت أحسبك تتسلّى بتصوير إصبع قدمك .. »

ابتسم ولفافة التبغ فى فمه .. وقال وهو يشير إلى الصور :

- « لا .. تأمل جيدًا ! هذا رأس .. وهذا جذع .. وهاتان يدان .. ثم فرّ الشىء منى قبل أن أجد الفرصة كى ...... »

- « إن ما تتحدث عنه يبدو لى كـ .. كسحلية تمشى على قدمين .. الديناصورات فقط تفعل هذا .. »

- « ليس إلى هذا الحدّ .. هناك ستة آلاف نوع من السحالى فى العالم ، منها اثنا عشر نوعًا يمشى على قدميه الخلفيتين .. قد تكون صورة سحلية فعلاً .. »

- « وهل هى التى فعلت هذا ؟ »

- « لا أدرى .. نسيت أن أقول إن طول هذا الـ .. هذا الشىء كان فى ارتفاع قامة الإنسان .. »

- « جنس جديد هنا ؟ هذا هراء .. لقد تمّ مسح (الكاميرون) بعنايةٍ منذ دهر .. ربما وجدوا خنفسةً أو ذبابةً لم يروها من قبل .. لكن وحشًا بهذا الحجم .... »

قال المدير :

- « لا تنس أنهم يبحثون عن (الساسكواش) فى (أمريكا الشمالية) ، وعن الـ (مى - جى) فى (التبت) ، وعن وحش (لوخ نس) فى (إسكتلندا) ، منذ أعوام طوال .. وما زال العلم عاجزًا عن إثبات أو نفى وجودها .. »

واتسعت عينا (بارساد) المتوحشتان .. وقال :

- « لهذا أنا هنا .. إن الوطنيين - منذ عقد كامل - يتحدثون عن ظهور (روح الأدغال) من جديد .. لم يبق سوى أن يثبت ذلك أحد .. وأنا سأفعل .. »

نظرتُ للمدير الذى كان يرمق (بارساد) فى انبهار ..

كان يقدّس هذا المخلوق ويجلّه حقًا .. فلم يبق إلا أن يشعل البخور ويقدم له القرابين ..

وأدركت أن الأمـر يتجاوز الإعجاب الإدارى .. بل هو يخفى إعجابًا طفوليًا قديمًا بالصيادين .. كما ينبهر الأطفال بالضباط .. ثم إن المدير رخو وديع ، لـذا ينبهر بالرجال المتوحشين الإيجابيين مثل (بارساد) .. وأنا صغير السن لكنّى تعلمت ألا أنبهر بهواة التمثيل مثل هذا الفرنسى .. فلربما هو ليس شـجاعًا كمـا يحاول أن يبدو ..

وتذكّرت حادثًا طريفًا وقع لى حين كنت طبيب أرياف .. كنت قد دخلت إلـى الصيدلية بحثًـا عن شىء ما ، ومعى عامل خشـن مـن عمـال الوحـدة الصحية كانوا يدعونه (السبع) .. وكان فظًا ضخمًا كالباب .. أفعم الشعر جسده ووجهه فلم يترك سوى بياض عينيه وأسنانه .. وله شاربان يصلحان لوقوف النعام لا الصقور ..

وفتحت علبة مغلقة فإذا بفأر شرس المنظر عملاق يثب منها فى وجهينا .. تمالكت أنا الطبيب الوديع نفسى ورحت أطارده .. بينما (السبع) - لشدة دهشتى -

قد أطلق صرخات مولولة كامرأة هلك رضيعها ..
ووثب إلى النافذة وهو يصرخ :
ـ « فار ! يا خراابي ! »
وكان علىَّ أن أتولَّى وحدى مهمة قتل الفأر بالمكنسة !
وابتسمت وأنا أتخيل (آلان بارساد) يولول ويتعلق بشجرة .. بينما سحلية صغيرة وديعة تقف على الأرض ترمقه فى دهشة ساخرة !



٦ـ الحملة ..

إن الخطر الذى ينتظر فى الدغل لا يهاب الأسود ..

هذه هى الحقيقة التى أدركها الصياد الأسودَ (ماكوبكا) وهو يواصل زحفه فى الأحراش .. حقيقة جعلته يتوتر .. خاصة وأن منظر الأسد العاجز لا يبرح خياله ..

لكنه تقدّم .. ربما مدفوعًا بالكبرياء أكثر منه بالتعقل ......

كان يتقدّم الآن على حافة النهر الذى يقوده إلى أطراف الدغل .. ويدعى نهر (كرا ـ آل) .. وهو نهر ضيق كئيب لا يزيد اتساعه على خمسة أمتار فى أكثر أجزائه .. وكانت الأشجار الكثيفة تظلله ، بينما جذوع أشجار خشنة على الجانبين .. ويجب أن تكون ملمًا بإفريقيا كى تعرف أنها تماسيح غافية .. يجب أن تكون ملمًا بإفريقيا كى تعرف أنها لا تهاجم إلا ليلاً ..

إن التماسيح تستطيع انتزاع ساق إنسان أو أسد .. لكنه كان يعرف أن أكثر الحوادث جرت نهارًا .. ثم إن الأسود ليست حمقاء .. إن الغريزة تعلمها دومًا متى وأين ترد النهر لتطفئ ظمأها دون أن تؤذيها التماسيح ..

واصل المشى على ضفة النهر وهو يتلفت حوله فى حذر ..

وهنا أدرك أنه يدنو من شىء غريب حقًا ..

★ ★ ★

قال المدير وهو يفك حزامه قليلاً ليريح (كرشه) من تحت المعطف :

- « لقد جمع مسيو (بارساد) الأدلة الكافية .. وجاء هنا طالبًا من الحكومة الكاميرونية أن تعينه فى تنظيم حملة .. إن بضع وحدات من الجيش تكفى لتمشيط الغابة جيدًا .. لكن (ياوندى) تبدو مترددة .. فعندهم من المشكلات المادية ما يكفيهم ، ولا يحتملون هذا الترف العلمى .. من ثم قرر مسيو (بارساد) أن يقوم بالحملة على نفقته الخاصة ، مع بعض تبرعات من أصدقائه الباريسيين .. والمشكلة الأساسية هنا

هى حاجته إلى أفراد للحملة .. وقد جاءنى يطلب رأيى فاقترحت بضعة أسماء كان من بينها اسمك بالطبع ! »

صحت كالملسوع :

ـ « اسمى ؟ وما دخلى أنا بهذا السخف ؟ بل ما دخل (سافارى) بهذا ؟ ليس قتل الوحوش مهمتنا على ما أظن ، ما لم نكن متمسكين بالمعنى الأصلى لكلمة (سافارى) .. »

ـ « حقًا أنت مطلق الحرية .. لكن دعنى أؤكد لك أن قبولك سيكون جمّ الفائدة بالنسبة لـ (سافارى) من الناحية العلمية .. ومن الناحية العملية .. أليس واجبنا الوقاية من الأمراض قبل حدوثها ؟ من واجبنا كذلك حماية الأهالى من الوحوش قبل أن تنتزع أطرافهم .. »

ـ « هذا ـ واسمح لى ـ لىٌّ لعنق المنطق .. »

ـ « إن الحملة تحتاج إلى فرد ذى خبرة طبية .. فلو تمّ كل شىء كما نتوقع فلسوف تسيل دماء كثيرة .. »

ـ « هذا يزيدنى حماسًا فى رفضى .. »

ونهضت لأغادر المكتب بعد ما هززت رأسى بتحيـة مهذبة ..

هنا سمعت (بارساد) يقول للمدير :

- « إذن نستعين بالاسم الثانى فـى القائمـة .. ذلك الإسرائيلى .. قلت لى ما اسمه ؟! »

- « (إبراهام ليفى) ! »

- « أرجو أن تطلبه ! »

آه ! الثعلب ! لقد عرف كيف يثير اهتمامى ويوقظ روحى القتالية الغافية فى أعماقى ..

صحيح أنه من المغرى أن يذهب (ليفى) للدغل حيـث يفتـك بـه (روح الأدغـال) ويمـزق ذراعيـه وساقيه ؛ لكنـى لا أتحمـل لحظـة واحـدة أن يتحقـق احتمال واه جدًّا : أن يعود حيًّا يُرزق ومظفرًا ..

لهذا استدرت نحوهما ، وعدت لأجلس فى المقعد الجلدى ..

- « إننى مستعد للانضمام إلى هذه الحملة .. »

- « مرحى ! »

وكانت هذه هى البداية ......

★ ★ ★

بينما (ماكوبكا) ـ ذو الذراع الشهم ـ يدنو أكثر فأكثر من الكوخ العملاق .. كلا هو ليس كوخًا .. لقد ذهب مرة إلى (أنجاوانديرى) فرأى مبنى ضخمًا كهذا ..

يوجد حاجز من السلك الشائك حوله ، أما السماء فقد حجبتها شبكة سميكة هائلة الحجم والامتداد تشابكت عليها الغصون وأوراق الشجر بشكل لا يمكن تخيله ..

كان المبنى يمتدّ لمساحة مائتى خطوة .. لكن اجتياز السلك بدا مستحيلاً .. وكان هناك مستنقع يفصل السلك الشائك عن الجدران ، بينما ماسورة صرف هائلة الحجم تتلوى كثعبان حتى تصل إلى النهر ، وقد راحت تصبّ مادة خضراء لزجة ..

لم يستطع فهم ما يراه .. وما كان سواه ليستطيع ..

لكن فؤاده ـ الذى رأى أعتى الوحوش ـ راح ينبض فى صدره هلعًا ..

لا بد من العودة حالاً .. لا بد ..

إن ما يراه غامض .. والغموض يورث الذعر ..

استدار وراح يركض دون أن ينظر للوراء ..

جرى مسافة معقولة .. لكن حتى أبرع الصيادين يتعثرون أحيانًا ..

وقد تعثر هو فى جذع شجرة على الأرض تعفن أكثره ..

نهض وألم ممضٍ يمزق كاحله ..

عاد إلى الرقاد وراح يتفحص ما هنالك ..

لم يكن خبيرًا فى علم الكسور .. لكنه أدرك أن كاحله قد التوى أو تمزقت أربطته ..

وأدرك أنه لن يستطيع المشى ما لم .. ما لم يجد ما يصلح كعكاز ..

صحيح أن اجتياز الغابة على عكاز أمر عسير .. لكن البقاء حيث هو آخر ما يتمناه ..

بحث حتى وجد فرع شجرة طويلاً متماسكًا .. مزق قطعة من قميصه واصطنع بوساطتها مع قطعة خشب صغيرة ما يصلح كوسادة للإبط ..

ثم إنه تحامل على نفسه حتى استطاع الوقوف على هذا العكاز البدائى .. أواه ! إن الألم يمزق كاحله لكنه قادر على المشى على كل حال ..

يا لـ (ماكوبكا) البطل !



وقد تعثر هو فى جذع شجرة على الأرض تعفّن أكثره ..
نهض وألم مَمِضٌ يمزق كاحله ..

حتى الموتَ والأرواح نفسها لا تقدر على إيذائه ..

واصل التقدم فى الدّغل عائدًا إلى القريةَ ..

لكن شيئًا ما أثار انتباهه فى حائط الأشجار الذى يمتد إلى جواره .. ثمة ظلّ يتحرك ..

شىء أقرب إلى إنسان يمشى على قدميه .. لكن رأسه ....

رأسه ......

وفى هذه اللحظة تهشّم العكاز البدائى ..

★ ★ ★

كنت أمشى مع (بارساد) فى أروقة الجناح الإدارى من (سافارى) ، وهو يحدثنى عما يتوقعه منّى من ترتيبات ..

كان بحاجة إلى معدات طبيّة .. إلى حقن (أدرينالين) .. إلى ضمادات وبعض من مصل (التيتانوس) - أو (الكزاز) كما يترجم للعربية - ومصل الكلب .. وبعض المصل المضاد لسمّ الأفاعى .. كان بحاجةَ إلى مطهرات وبعض (الفورمالين) لحفظ ما نجده من بقايا ..

كان بحاجة - كالعادة - إلى (بودرجا) الممرض

الذى هو مترجم كذلك .. وأثار منظرنا الجادَ ـ كأننا ذاهبان للحرب ـ فضول أكثر من رآنا من أفراد الوحدةَ .. وقد دنت (برنادت) منا فحيتَه ، ثم سألتنى عما هنالك ، فقلت لها (سرّ) ..

قالت كأنما تصارحنى بمدى حماقتى (وكان كلامها همسًا) :

ـ « إن لم تخنَى الذاكرةَ فهذا الذى تمشى معه هو (آلان بارساد) ..

وهو صياد فرنسى .. لكنه وغد ونْصاب .. وأعتقد أنك لا تعلم أنه كان من جنود المرتزقةَ فى الستينات .. »

ـ « أعلم ... »

ـ « وأيةَ جدوى تجنيها من مرافقةَ عقرب كهذا ؟ »

ـ « ربَما كانت العقارب مستَحبةَ عندما نرغب فى قَتل الثعابين .. »

ـ « ثعابين ؟ لا أفهم ... »

ـ « إنها تلك الأفعى الهنديةَ التى تعض الأطفال .. »

ـ بدا عليها الذهول قليلاً .. ثم هزَت رأسها كأنما تأبى الأمر كله .. وتساءلت بصوت مسموع :

ـ « هل ستأخذه معك يا مسيو (بارساد) فى رحلتك ؟ »

قال لها بسماجته المعهودة :

ـ « حتمًا .. إن الصبى يحتاج إلى مران .. »

ـ « سيموت منك ! »

ـ « هـذا وارد .. فأنـا لا أعد بالحياة .. هـذا بيت القصيد يا دكتورة . »

كانت تتصرف كأم مذعورة تخشى أن يؤذى وليدها .. وقد أسعدنى هذا بقـدر مـا أحرجنـى .. أنـت تذكـر شعورك حين كانت أمك تتدخل لصالحك أيـام المدرسـة فى مشاجرة بينك وبين أحد أترابك ..

قلت لها لأنهى الحرج :

ـ « (برنادت) .. لقد قررت وانتهى الأمر .. »

ـ « أنت معتوه ! »

وابتعدتُ ـ محمرَّ الأذنين ـ مع (بارساد) .. وأنا أحاول ألا أنظر للوراء ..

★ ★ ★

كان ذلك عند المساء ..

إذ وصل مصاب جديد إلـى وحـدة الطـوارئ فـى (سـافارى) .. لـم أعرف هذا إلا بالصدفـة ، إذ كنـت هناك أنتقى بعض الأشياء للحملة ..

وعرفت من رجال الإسعاف السود أن الرجل من قريةَ تُدعى (موجابا) وهو صياد دخل الدغل صباحًا ثم خرج منه عند الغروب .. لكنه لم يخرج على قدمين .. (موجابا) ! أين سمعت هذا الاسم من قبل !

كان عملاقًا أسود تلتمع عضلاته كأنما قدَت من أبنوس ..

وكان يرتدى قميصًا مهلهلاً .. هذا هو كل ما يمكن رؤيته .. أما الباقى فأتركه لخيالكم ..

لقد وجد (روح الأدغال) مرحًا كبيرًا هذه المرّة ..

كان (بيتر) طبيب الطوارئ الألمانى عاكفًا على تركيب قناة وريدية فى عنق العملاق ، وهو يردّد :

- « أيةَ بشاعة هذه ؟ لقد عمّ الجنون العالم ! »

ودار المشهد التقليدى من ركض الممرضة لإحضار الدم .. ومن زجاجات المحاليل ومن ربط الجروح .. ومن ....

أما أنا فرحت أراقب المشهد بلا مبالاة ...

كنت من البداية قد رأيت الموت واقفًا عند رأس المريض ..

وليس هذا استهتارًا منى أو قسوة ..

كـل مـا هنـالك أن هنـاك أربعـة سـوى يُعنـون بالمريض .

ورأيت الشفتين المتشققتين للرجل تتحركان وعينيه المفتوحتين الشاخصتين تبحثان عمن يصغى ..

دنوت منه وأشرت إلى عامل (كاميرونى) يعرف الفرنسية ، أن يترجم لى ما يقول بلغة (الباتتويد) ..

- « (ماكوبكا) .. هى .. كريهال .. أونجا .. »

ثم سيل من الكلمات المتقطعة الشبيهة بالفحيح ..

وهنا انتابه هياج مفـاجئ وحـاول النهوض فتشبَث به الجميع كى لا ينتزع خراطيم المحاليل والإبـر .. إن هذا البائس قوى كثور .

وفى اللحظة التالية همدت حركته تمامًا .. وخرج الزبد من فيه .. وأدركنا أن كل شىء قد انتهى ..

دنوت من العـامل الكـاميرونى الـذى كـان يلهـث كالبركان .. وسألته :

- « ماذا قال لك ؟ »

نظر لى فى ذعر .. ثم ابتعد مسرعًا .....

★ ★ ★

٧ـ الآن نتحـرك ..

ـ « إن هذا الأحمق لا يريد الكلام .. »

ـ « مستحيـل .. استدعه هـا هنـا .. قـلت لـى ما اسمه ؟ »

ـ (جوالا) .. إنه مسعف .. »

وأمسك المديـر سماعةَ الهـاتف واتصـل بمديـر المستخدمين يسأله أن يرسل مـن يُدعـى (جـوالا) لمكتبه ..

ومرت دقائق من الصمت ثـم انفتح البـاب ، ودخل الأخ (جوالا) بكتفيـن منحنيتَين متثَقلتَين بـالهموم .. ولم يرفع عينيه نحونا قط ..

قال المدير فى لهجةٍ ودود :

ـ « (جوالا) .. إن د. (عبد العظيم) يقـول إنـك آخر من سمع كلمات الوطنى الذى توفى منذ ساعةً .. فهل هذا صحيح ؟

ـ « صحيح يا سيدى .. »

- ومع ذلك لا تريد الكلام ؟ »
- « لا يا سيّدى .. »
هنا احمرّ وجه بروفسور (بارتليه) فتحول إلى ثمرة طماطم مكتنزة وهتف :
- « أنا لا أطلب منك الكلام .. بل آمرك به ! »
ظلّ المسعف مطرقًا رأسه متحاشيًا رفع عينيه .. وقال :
- « آسف يا سيدى .. لا أستطيع .. »
- « وهل لى أن أعرف السبب ؟ »
- « لا أستطيع الكلام .. آسف ! »
نظر لى المدير ذاهلاً .. فلم يتوقع أن يقاوم الرجل سلطته وهو - ككل من لا يتمتع بشخصية كاسحة - عصبى جدًا من أعماقه .. مستعدّ لأن يدمر الرجل تدميرًا لإثبات قياديته وقوة شكيمته ..
سألنى بصوت مبحوح :
- « ماذا أفعل مع هذا الأحمق ؟ »
قلت فى هدوء :
- « إن انتزاع الأظفار بالبنسة أو الحرق بالكهرباء لهما نتائج لا بأس بها .. لكنهما ليسا من الأساليب المحببة كما تعلم .. »

- « ليكن .. انصرف يا (جوالا) .. وليكونن حسابك عسيرًا فيما بعد .. »

ودون كلمةَ اعتذار واحدةً انصرف المسعف وهو يتنفس الصعداء ..

فما إن انغلق الباب حتى صاح المدير فى غيظ وذهول :

- « أرأيت ؟ إن أولئك الحمقى يتطيرون من كل شىء حتى من أصابع أقدامهم .. إنه يخشى الكلام عن الشرّ الذى تحدث عنه المتوفى كى لا يطارده هذا الشر هو وأسرته .. وكأنما عدم الكلام عن الشيطان كاف لإلغاء وجوده .. إن هذه العادات المحليةَ تثير جنونى .. »

قلت متنهدًا :

- « المشكلةَ هى أن المتوفى كان أول رجل يرى (روح الغابات) ثم يتكلم عنها .. ولا بد أن ما قاله كان مهمًا جدًا .. »

قال المدير ما معناه أن (يا خبر النهاردةَ بفلوس بكره ببلاش) .. واسترخى فى مقعده وقال :

- « ما علينا .. غدًا تعود لنا أنت و (بارساد)

ومعكما الخبر اليقين .. هل استعددت للسفر تمامًا ؟ »
ـ « لم أكتب وصيتى بعد إن كان الاستعداد يتضمن هذا .. »
ـ « متى تتحركان ؟ »
ـ « فى السابعة صباحًا .. سنكون فى (موجابا) عند الظهيرة .. »
ـ إذن أتمنى لكما حظًا سعيدًا .. لقد بدأت إجازتك من اليوم .. »
ـ « أرجو ألا تكون مفتوحة .. »
ابتسم المدير ولم يقل شيئًا :

★ ★ ★

تناولت أسوأ إفطار فى حياتى .. ثم اتجهت إلى العربة الـ (لاندروفر) مع (بودرجا) .. الذى راح يتسلى بمضغ بعض الأوراق المخدرة مع السائق .. وهى أوراق تخرج عصيرًا أحمر يملأ فم الماضغ ويسيل على ذقنه ، حتى يبدو مثل مصاصى الدماء فى أفلام شركة (هامر) القديمة ..
وجاء (آلان بارساد) وقد حرص على أن يبدو وغدًا بكل ما فى الكلمة من معان .. ارتدى قبعة

واعتمر بندقية ، ولفافة التبغ المقيتة لا تفارق شفتيه ، كأنما هو ذاهب إلى رحلة (سافارى) حقيقية حين لم يكن لغابات (إفريقيا) صاحب ..

قلت له فى سماجة :

ـ « لم يبق إلا أن يأتى الحمالون الأفارقة .. وعندما نصل لهدفنا يجبنون جميعًا لكنك الوحيد الذى يجرؤ .. باعتبارك البطل الأوروبى .. »

قال فى جدية :

ـ « وأنت ؟ »

ـ « أنا عربى .. وبالتالى أنا تاجر رقيق .. ألم تقولوا هذا فى أدبكم مرارًا ؟! »

ابتسم وهو يتخذ مكانه فى السيارة .. وقال :

ـ « أنت تقرأ قصصًا مصورة أكثر من اللازم .. هذا هو بيت القصيد .. »

ثم ـ بلهجة مسرحية ـ هتف :

ـ « انطلق .. ولترع السماء حملتنا ! »

وهدر محرك السيارة لتبدأ الرحلة الرهيبة ..

★ ★ ★

وصلنا إلى (موجابا) فى الواحدة بعد الظهر ..

وكانت قرية كأية قرية أخرى من قرى (البانتو) ..

و (البانتو) أصلاً هم القبائل السوداء التى تسكن (إفريقيا) من خط الاستواء حتى الجنوب ، وهم أساسًا قادمون من الشمال .. وسوادهم أقلّ من سواد باقى الأفارقة ، والسبب هو اختلاط دمهم بدم (الحاميين) ..

وبين (البانتو) تجد قبائل (البافندا) و(الباكوينا) و(الدمارا) .. وعامة تحمل القبيلةَ اسم رئيسها مسبوقًا بكلمةَ (آما) ..

ويؤمن (البانتو) بإله واحد يسمونه (أمكولو نكولو) هو الذى خلق الإنسان من طين ، وإن كانوا ينظرون له نظرة أقرب إلى نظرتنا نحن إلى سيدنا (آدم) ..

وليس لل (بانتو) لغةَ واحدة .. بل إن لديهم ٢٧٤ لغةَ كلها تمتاز بأن آخر الكلمات متحرّك دائمًا .. وأول الكلمات متشابه دائمًا ..

لكن هناك حروفًا تصدم سمعك ، مثل طقطقة اللسان .. فهذا حرف من حروف (البانتو) ! كما أنهم يتهتهون كقبائل (الهوتنتوت) ..

وليس نشاط (البانتو) زراعيًا .. بل هو نشاط

زعوى أساسًا .. لهذا يدفعون المهر - ويسمونه (لوبالا) - بالماشية ..

ويستطيع من يعرف (إفريقيا) أن يستدلّ بسهولة على بيت الزعيم وسط قرى (الباتتو) لأنه يكون مركز القرية بالضبط ..

بقى أن أقول إن (الكاميرون) بها مائتا قبيلة وعشرة آلاف من الأقزام !

★ ★ ★

كانوا جميعًا عازفين عن الثرثرة ..

وحين سألنا زعيم القرية عن (ماكوبكا) ومغامرته .. وعن الخطر الكامن فى الدغل .. وعن حوادث مشابهة حدثت فى قريته ؛ لم يبد مستعدًا للكلام .. اكتفى بإبداء ذلك التحفظ المتطيّر المألوف ..

طلب منه (بارساد) أن يرسل معنا من يشاركنا فى الرحلة .. لكنه قال فى كبرياء :

- « أبناء (موجابا) لا يعملون حمالين لدى الأبيض .. »

أفهمه (بارساد) أن المطلوب ليس حمالين بل أدلاء .. لكن الرجل ظلّ على عناده .. وفهمنا على

الفور أن الرجل خائف من هذه الرحلة على أبنائه ..
وتناولنا طعامًا جلبته لنا النسوة .. كنت مشمئزًا لكنى أدرك جيدًا أن المدلل يجب أن يبقى فى داره .. وليس أسهل من إهانة المضيف إذا أظهرت الاشمئزاز على وجهك ..

لكن الطعام لم يكن رديئًا .. كان نوعًا من عصيدة الذرة مع قطعة من لحم البقر المسلوق تأكلهما بيديك طبعًا ..

وحين انتهى الطعام أدركنا أن الزعيم يتوقع منا الرحيل ..

فلم نكذب خبرًا ..

★ ★ ★

الآن نمشى فى الغابة وسط الأشجار المتشابكة ..
كنا أربعة لا أكثر : أنا و (بارساد) و (بودرجا) والسائق الأسود الذى يُدعى (موفيرو) ..

وعلى الفور قام (بارساد) بتوزيع البنادق علينا .. وأنا لم ألمس سلاحًا فى حياتى .. لهذا لم أر داعيًا لحمله .. ولم أفهم حرفًا مما قاله لى عن كيفية الإطلاق ..



الآن نمشى فى الغابة وسط الأشجار المتشابكة ..
كنا أربعة لا أكثر ..

لكن (بارساد) قال لى فى حزم :
ـ « حاول أن تركز .. لو رأيت أسدًا هائجًا يخرج من وراء الأشجار فى هذه اللحظة ، لتمنيت لو لم تكن شاعريًا محبًا للسلام إلى هذا الحدّ .. »
ـ « لكنى لا أجيد التصويب حتى على عمارة أنا بداخلها .. »
وتذكرت المهازل التى كنت أسببها كلما حاولت لعب الرماية فى (المولد) حين كنت فى (مصر) .. إن طلقاتى كانت تصيب كل شىء سوى (البومب) الذى يملأ الهدف .. وفى الجيش كنت طبيبًا أكثر منى جنديًا ..
لكن (بارساد) قال بنفس الحزم :
ـ « إن التصويب غريزة لا أكثر .. دع لفطرتك العنان ولسوف تطلق الرصاص فى الاتجاه الصحيح .. »
ثم ناولنى خنجرًا صالحًا للالتحام ..
أما هو فكان مسلحًا كترسانة ، وكان يحمل مسدسًا خاصًا للطلقات المخدّرة أو الـ Darts كما يسميها ، وكان خنجره جميل الشكل مزوّدًا ببوصلة فى مقبضه ..

الخلاصة أنه (بدا) قويًا شجاعًا .. لكنى لستَ متأكدًا من (كونه) كذلك ..

★ ★ ★

مشينا نصف ساعةً فى الدغل ..

وقال (بارساد) وهو يتقدمنا دون أن يدير وجهه :

ـ « نحن الآن فى منطقة (اللا بشر) التى لم يجرؤ واحد من أهالى القرية على الوصول إليها .. إن (التابو) يحرّم عليهم ذلك فى عقيدتهم .. لكنى وصلت إلى هذا الحدّ مرارًا بل وتجاوزته بنصف ساعةً .. لكن ما أبحث عنه لم يظهر قط ، وما كان بوسعى أن أنتظره وحدى .. والآن لو نظرتم إلى الأرض لوجدتم فئرانًا منهوشةً .. أو سيقان حيوانات .. هذا هو ما يؤكد لنا أن الطريق صحيح .. »

سألته وأنا أرمق الأشجار فى توجّس :

ـ « وماذا سنرى بعد نصف ساعةً ؟ »

ـ « النهر المدعو (كرا ـ آل) .. لكنى لم أتجاوزه قط .. ولم أحاول المشى بمحاذاته .. »

كانت هناك أسرةً من الغوريللات على بعد خمسين مترًا أمامنا فى فرجة بين الأشجار ..

وأنا لم أر هذه الوحوش قط حتى في حديقة الحيوان (لست متأكدًا إن كانت هناك أصلاً) .. لذا بدا من المستحيل أن أمرّ قربها ..

لكن (بارساد) قال في صوت خفيض :

ـ « سنمرّ بها دون مشاكل .. اخفضوا رءوسكم ولا تحدثوا ضوضاء .. »

وقد كان ..

لم تتحرك الحيوانات الملولة حين رأتنا ، ولا ألومها على ذلك ، إن كل الكتب تقول إن الغوريللات حيوانات وديعة تأكل الخضر .. وثوراتها كثورات البروفسور (بارتلييه) غير جادّة وغير خطرة ..

لكن هل تقرأ الغوريللا هذه الكتب ؟!

★ ★ ★

كان الذباب يتزايد من حولنا .. والحرّ قائظ مُرهق .. لكني كنت قلقًا من اللدغات التي ملأت جلدي ..

سألت (بارساد) في توتر :

ـ « كيف نعرف أن هذا ليس ذباب (تسي تسي) ؟ »

ـ « من العسير أن تجد (تسي تسي) بعيدًا عن القطعان .. لكن الخطر وارد على كل حال .. لهذا أخذنا جميعًا حقن (البنتاميدين) أمس .. »

واستطرد وهو يشعل لفافة تبغ :

- « إن الـ (تسى تسى) قد قتلت من الماشية أضعاف من قتلته من البشر .. والمرض يسمونه فى الماشية باسم (ناجانا) .. أما فى الإنسان فيسمونه (مرض النوم) .. »

- « أعلم .. أنت تحدث طبيبًا على كل حال .. »

لكنى لم أكف عن القلق من هذا المناخ الملىء بالمرض ..

برغم أننى صرت قديمًا فى (سافارى) ؛ إلا أننى لم أجرب قط هذه الحملات فى الأدغال .. وأعترف أنها تثير القلق ..

★ ★ ★

بعد مشى طال ، توقف (بارساد) والتقط شيئًا من الأرض ..

سألته وأنا أنحنى لأريح ظهرى :

- « ماذا وجدت ؟ الزائدة الدودية لأحد الضحايا ؟ »

مدّ يده ليرينى غصن شجرة مهشمًا ، وقد ربط إلى طرفه غصن آخر مُستعرض .. وكان من ربطهما قد استعمل قطعة قماش خضراء زاهية اللون ..

كان ما وجده (بارساد) أقرب إلى مطرقة بدائية .. لكن ما تبقى من الغصن على الأرض أقنعنى أن هذا عكاز .. عكاز مهشم .

تساءل (بارساد) فى خيبة أمل :

ـ « إذن فهناك من وصل إلى هذه المرحلة .. »

قلت وأنا أبحث فى المكان :

ـ « ولم يعش طويلاً .. إن الوطنى الذى مات فى (سافارى) أمس كان يرتدى ما تبقى من هذا القميص زاهى اللون .. »

ـ « وهل كان يعرج ؟ »

ـ « لم يكن له قدمان حين رأيناه ! »

وبدأت الصورة تتضح أمامنا ..

لقد وصل (ماكوبكا) إلى هنا .. وقد كُسرت ساقه أو التوت مما اضطره إلى اصطناع عكّاز بدائى .. ثم تهشم العكاز فصار فى مأزق .. إن الخطر داهم هاهنا على من يملكون ساقين .. فكيف به مع من لا يستطيع الوقوف ؟

المذبحة قد بدأت هنا .. ولكن أين آثارها ؟!

★ ★ ★

٨ـ الشىء فى الأدغال ..

هو ذا نهر (كرا ـ آل) ..

وهو ليس بنهر ـ أو هكذا أظن ـ بل هو بركة آسنة مغطاة بالطحالب تذكرنى بمصرف مهمل فى إحدى قرانا ..

وكان مزدانًا على الضفتين بجذوع أشجار خشنة مزخرفة ، وتذكرت هذا المشهد على الفور فقد رأيته فى السينما مرارًا ..

ـ « تماسيح ؟ »

هزّ (بارساد) رأسه أن نعم .. وواصل التقدم جوار الضفة .. فسألته :

ـ « ألن تهاجمنا ؟ »

ـ « نعم .. إنها تتحين الفرص التى تأتى لها .. لكنها لا تهاجم نهارًا .. لا تنس أن هذه الزواحف ذات دم بارد .. والحرّ يقتلها قتلاً .. »

كانت السماء مظلمةً تمامًا بفعل غصون الأشجار

المتشابكة .. لهذا بدا الأمر لى كأنما نمشى فى نفق تحت الأرض ..

لكن الظلام لم يكن دامسًا بالطبع .. كانت هناك رقع عديدة من ضوء الشمس تتسرب من ثغرات الأغصان وتلتمع على الأرض ، كأنما هى قطع عملات من الذهب بعثرها أحدهم بسخاء وإهمال فى كل صوب ..

ثم سمعنا صوت الهدير ..

★ ★ ★

على الفور - وغريزيًا - اتخذنا أوضاعًا دفاعية ممتازة ، وقد شهر كل منا بندقيته فى اتجاه ..

وبعد دقائق هدأ روعنا لكن الهدير لم يتوقف .. رتيبًا خفيضًا موجسًا ..

- « ما هذا ؟ »

قال وهو يلهث انفعالاً :

- « لا أدرى .. »

- « هل توجد وحوش لها هذا الصوت ؟ »

- « ربما ذكر الغوريللا .. لكن لا .. لم أسمعه قط .. »

نهضنا وقد استرخينا قليلاً ..

لكننا ظللنا يقظين .. وقد راح قلبى يخفق كجناحى عصفور طنان ..

★ ★ ★

لو كان هناك شيء ما فهو لم يهاجمنا بعد .. فلماذا ؟

★ ★ ★

بعد ثوان لمحنا أروع منظر تصورنا أن نراه ..

فعلى حافة النهر وعلى امتداد شاسع كان ذلك البناء العملاق .. بناء من الأسمنت كئيب المنظر لكنه يمتد لمساحة لا بأس بها .. وكان هناك سور من الأسلاك الشائكة ارتفاعه ثلاثة أمتار يفصله عن باقى الدغل .

ورأينا مدخنة كمداخن المصانع يخرج منها دخان أزرق مريب الشكل ، بينما صوت الهدير فى أعلى درجة له .. وعرفنا على الفور أن هذا هو مصدره .. هذا المبنى الشيطانى الذى يقف كشبح فى وسط الدغل ، حيث لا تتخيل وجوده حتى وأنت تراه رأى العين ..

هتفت فى ذهول :

- « رباه ! هل رأيت هذا من قبل ؟ »

نظر لى فى ذهول مماثل .. وعيناه جاحظتان كالأسماك .. وكانت إجابة بليغة جدًا : هو لم ير هذا من قبل .. ولم يسمع عنه .. ولم يتصور مجرد وجوده ..

عدت أسأله :

- « كيف لم يره أحد من قبل ؟ »

أشار إلى السماء فوق البناية .. وقال بصوت مبحوح :

- « لقد أجادوا التمويه .. توجد شبكة فوق البناية بها أغصان متشابكة وأوراق شجر .. وهذا يجعل رؤية هذا الشىء من الجو مستحيلة .. أما من على الأرض ، فليس هناك من يجرؤ على اجتياز الدغل إلى هذه المرحلة .. »

- « تمويه ؟ تمويه لأى شىء ؟ »

- « لا أدرى .. هذا هو بيت القصيد .. »

ثم أشار لنا كى نرقد على بطوننا وسط الأعشاب والنباتات المتخمرة .. وعاد يهمس :

- « على الأقل قد عرفنا أن هذا المبنى موجود .. وأن نشاطًا مريبًا يجرى فيه .. »

ومن بعيد رأينا شخصين يتحركان .. كانا قد خرجا من أحد أبواب المبنى ليعبرا الرقعة الخالية من الأشجار ، قاصدين بابًا آخر ..

كان زيهما موحدًا جعلنى أتذكر زىّ رجال الأمن .. وكانا يتكلمان بصوت مرتفع حمل لنا الهواء بعض مقاطعه ..

غمغم (بارساد) همسًا :

- « ألمان ! لقد عادوا إلى (الكاميرون) أخيرًا .. »

وبالطبع كانت هناك ثلاثة أو أربعة كلاب هائلة الحجم ، تجول فى حرية تامة خلف السلك الشائك ، لكنها لم تميز روائحنا ..

- « دعونا ندر حول هذا المبنى .. علنا نعرف أكثر .. »

ورحنا نزحف على بطوننا ببطء ، صانعين دورة كاملة حول المبنى ..

وأخيرًا استطعنا أن نرى نقطة اتصاله بالنهر ، ورأينا ذلك الخرطوم هائل الحجم - اتساعه خمسة أمتار - الذى يتدلى فى النهر ، وقد راح يصبّ مادة خضراء كريهة فى الماء .

- « ويحى ! إنها لجريمةَ بيئيةَ شنيعةَ ! »
قالها (بارساد) همسًا ..
قلت له :
- « ولكن ما معنى هذا ؟ إن من يقيم مصنعًا وسط الدغل لا يقيمه لإنتاج الحلوى بالتأكيد .. فماذا ينتج هذا الشىء ؟ »
- « لا أدرى .. »
- « ربما هو مفاعل نووى .. »
- « لا تبدو كهذا .. إن المفاعلات أكثر تعقيدًا بالتأكيد .. »
- « إذن هلم نعد .. »
- « لا .. ليس بعد .. إننا لا نملك أيةَ إجابات على أيةِ أسئلة .. »
ومدّ يده إلى حقيبته فعبث بها قليلاً ، حتى أخرج كاميرا ثُبِّت عليها عدسةَ تلسكوبيةَ هائلةَ الحجم كالتى نراها فى إعلانات (أجفا) ..
وراح يمسح المنظر بعينيه .. ثم التقط بعض صور ..

★ ★ ★

قال إن الألمان عادوا إلى (الكاميرون) ..

الواقع أن الألمان ظلوا فى (الكاميرون) فترة قصيرة نسبيًا .. فمن الواضح أنهم لم يكونوا ذوى ميول استعمارية فى (إفريقيا) ، بل كانوا ينظرون فى جشع إلى (روسيا) و (أوروبا) فحسب ..

إن اكتشاف (الكاميرون) يعود إلى عصر الكشوف الكبرى .. وقد اكتشفها البرتغالى (فرناندو بو) .. وهو من سمى خلجانها باسم (ريو دوس كاميروس) أى (نهر البراغيث) ، وهو اسم يدلنا على ما عاناه بسبب البراغيث فى حملته !

ومن لفظة (براغيث) البرتغالية نشأ اسم (كاميرون) ..

وفى البداية كان هناك تعاون تامّ فى التجارة مع قبائل (دوالا) ..

إلا أنه فى عام ١٨٨٤ قررت (ألمانيا) أن تلعب لعبة الاستعمار التى تمارسها (انجلترا) و(فرنسا) و(هولندا) ببراعة .. وسرعان ما وقّعت معاهدة تخوّل لها الاستيلاء على البلاد .. لكن المواطنين قاوموها بعنف ..

وكانت الإدارة الألمانية فاسدة مهملة .. ولم تحاول

فقط إنشاء طرق أو مدارس أو إرساليات أو أى شىء مما يوطد سلطة المستعمر فى الأرض التى يستولى عليها .. لقد مارست (ألمانيا) لعبة لا تجيدها ..

وكانت النتيجة هى أن الألمان خرجوا من البلاد عام ١٩١٦ ، واحتلها البريطانيون والفرنسيون ..

ولم يتم تقسيم البلاد إلا عام ١٩٤٦ حيث صارت جزأين .. الجزء الشمالى انضمّ إلى (نيجيريا) .. والجزء الجنوبى صار اسمه (جمهورية الكاميرون المتحدة) وكانت تحت النفوذ الفرنسى تماماً(*) ..

★ ★ ★

قلت لـ (بارساد) :

- « والآن هلم نرحل .. أرجوك .. »

همس وعيناه الوحشيتان تلتمعان :

- « لا بد من معرفة ما هو أكثر .. إن هناك جهة ما قوية يهمها ألا ينتشر أمر هذا المعمل أو المصنع .. وهذه الجهة يمكن ابتزازها واللعب معها بحرص .. لا بد أنهم مستعدون لدفع الملايين .. »

(*) شهد عام ١٩٦١ استقلال عدد هائل من الدول الإفريقية ، ومن بينها (الكاميرون) التى استقلت فى أول يناير .

لقد سال لعابه ..

هو ذا المرتزق القديم قد ظهر إلى الوجود من جديد .. المرتزق الذى يقامر فى الخطر بحياته من أجل المال فقط ..

وأشعرنى هذا بعدم راحة ..

فلو كانت الأفلام السينمائية على حق ، فالخطوة التالية هى أن يتخلص من الحمقى الثلاثة كى يضمن صمتهم .. أى يقتلنى أنا و(بودرجا) والسائق .. لكنى كتمت خواطرى السوداء ، ورحت فى تعاسة أصغى لما يقول ..

قال لاهثًا من فرط انفعال :

- « ثمة أسئلة تحتاج إلى إجابة .. من هؤلاء ؟ كيف أنشئوا هذا الصرح دون علم حكومة (الكاميرون) ؟ وإن كان بعلمها فلماذا ؟ ماذا ينتجون ؟ كيف يتصرفون فيما ينتجون ؟ »

كانت إجابة السؤال الأخير سهلة جدًّا ..

لأن هدير طائرة هليوكوبتر ملأ أسماعنا .. ثم رأينا ثغرة تفتح فى السماء المزيفة التى تعلو المبنى .. ثغرة لا بأس بها .. ثم رأينا حبلاً سميكًا يتدلى من الثغرة وفى نهايته خطافان .. لكننا لم نر الطائرة ..

- « هذا منطقى .. سيرفعون الشيء جواً ثم يعيدون إغلاق الثغرة .. »

وراح يسلط عدسة الكاميرا على المشهد ..

لم يكن واضحًا لعيوننا .. لكنه استطاع بعدسته التليسكوبية أن يرى ما يحدث جيدًا .. لقد تمّ تثبيت صناديق خشبية فى الخطافين .. وسرعان ما بدأ (الونش) يرتفع حاملاً حمله الثمين .. وقال (بارساد) :

- « التحذيرات المكتوبة على الصناديق بالألمانية .. لحسن الحظ أننى أجيدها .. لحظة .. هذا التحذير يقول : سامّ جدًا .. تعامل بحذر .. ثم .. GA .. وGB .. وGD .. لا أفهم .. »

قلت وأنا أرتجف انفعالاً :

- « الأمر واضح .. هذه غازات أعصاب ! »

أبعد الكاميرا عن عينه ونظر لى فى حدّة .. وهتف :

- « هل تعنى ؟ »

- « نعم .. أعنى أن هذا معمل لإنتاج الغازات السامة ! »



من ضمن الغازات السامة التى اشتهرت بعد الحرب العالمية الأولى - حيث ساد استعمال غاز (ليفيزايت) - بدا أن هناك ثلاثة أنواع من الغازات تحظى بشعبيه خاصة ..

وكان الاسم الذى عرفه الناس لهذه الغازات هو (غاز الأعصاب) .. أما العسكريون فكانوا يسمونها (الجيمات الثلاث) 3G ..

وهذه الغازات هى GA أو غاز (التابون) .. وGB أو غاز (السارين) .. وGD أو غاز (السومان) ..

والثانى هو أشهرها كما نعلم ..

وبرغم كونها غازات إلا أنها فى الحقيقة تُحفظ فى حالة سائلة ..

وتنتمى من الناحية الصيدلية إلى ما يسمى بمضادات الـ (كولين إستريز) .. أى أن التسمم بها شبيه بتسمم المبيدات الحشرية ..

وتأخذ الأعراض شكل (قىء - مغص - إسهال - انقباض فى الشعب - تبول لا إرادى - صداع - ثم الغيبوبة النهائية المؤدية إلى الموت) ..

وحين يعرف الجنود أن هناك خطر التعرض

لـ (جيمات الثلاث) يحقنون أنفسهم قبل القتال بمادة (البيريد وستجمين) التى تقيهم من الهول القادم .. وهى مادة تحمى الـ(كولين إستريز) بشكل مؤقت ..

إن إنتاج هذه الغازات محرّم دوليًا ..

لكنه ـ كأى شىء محرّم ـ يُمارس فى كل مكان .. وعلى أوسع نطاق ..

★ ★ ★

« هذا هو بيت القصيد ! »

★ ★ ★

٩- وداعًا يا (بارساد) ..

قال (بارساد) :

- « قد فهمنا نصف ما أردنا فهمه .. لكن هل أقيم هذا المعمل بعلم الحكومة أم دون علمها ؟ أستبعد أن يقدر هؤلاء القوم على تشييد مبنى كهذا فى الأدغال خلسة .. »

ثم همس وهو يعيد الكاميرا إلى حقيبته :

- « سأدنوا لأرى أكثر ! »

- « لا تفعل .. لقد جئنا كى نقتل (روح الأدغال) لا لنلعب دور (جيمس بوند) ..

- « هذا المبنى هو روح الأدغال .. وأقسم على هذا .. »

وأمرنا أن نبقى حيث نحن لا نتحرك ......

وكما يفعل جندى العمليات الخاصة ؛ راح يزحف على بطنه فى بطء ، دانيًا من السلك الشائك أكثر فأكثر .....

همس (بودرجا) :

- « لكن الكلاب .. الكلاب ستشمّ رائحته .. »
- « لا بد أنه يعرف ما يفعله .. »
ودنا (بارساد) من السلك ، فأخرج أداة أشبه بمقياس الجهد (فولتا متر) من حقيبته ولامس بها السلك .. كان يريد التأكد من أنه ليس مكهربًا .. وهو تصرف ذكى بالتأكيد ، لكنى لن أفهم أبدًا سرّ حمله لجهاز كهذا ، وهو يعدّ لصيد وحش فى الأدغال !
لن أفهم هؤلاء المغامرين أبدًا ..
ثم إنه - منبطحًا على بطنه - أخرج (كمّاشة) راح يعالج بها السلك فى صبر محاولاً عمل ثغرة ..
قال (بودرجا) فى حيرة :
- « هذا الرجل يحمل كل شىء .. هل كان يتوقع مصادفة سلك شائك فى الدغل ؟! »
قلت محاولاً كبح غيظى الشديد :
- « إنه مرتزق قديم .. ولا بد أن هذه هى ذات الحقيبة التى كان يحملها فى أثناء عمله مع (تشومبى) ضد (لومومبا)(*) ..

(*) (لومومبا) زعيم وطنى محبوب من (الكونغو) حاول تأميم موارد البلاد من (اليورانيوم) .. من ثم تم ترتيب انقلاب بقيادة (تشومبى) وتم اغتياله فى الستينات ..



ثم إنه ـ منبطحًا على بطنه ـ خرج (كماشة) راح يعالج بها السلك فى صبر محاولاً عمل ثغرة . .

لكن لكل جواد كبوة .. و(حتى هومير يحنى رأسه) كما يقولون ..

لقد لمس (بارساد) شيئًا ما .. وعندها انفتحت أبواب الجحيم ..

أضاءت كشافات لا يعلم سوى اللّه أين كانت .. ودوّت صفارة إنذار كفيلة بإيقاظ الموتى ..

وسرعان ما رأيت حشدًا من رجال يحملون بنادق آلية ، ينتشرون خارجين من المبنى ، ونبحت الكلاب ، ودوّت الصيحات ..

ثم شخص يحاول التسلل .. مشّطوا المكان !

- « يا للمصيبة ! عُدْ سريعًا يا (بارساد) ! عُدْ أيها الذئب ! »

قلتها من بين أسنانى .. وأنا أرمق المبنى الذى تحوّل إلى شىء متوهج بالأضواء ، وأدركت أن ذبابة لا تستطيع التحرّك خارج السلك الشائك دون أن يروها الآن ..

كان (بارساد) متصلبًا ملتصقًا بالأرض يأمل فى أن تنتهى الضوضاء كى يتمكن من العودة ..

لكن بوابة انفتحت فى السلك الشائك .. وسرعان

ما برز أربعةَ من الرجال ذوى الزىّ الموحّد ، وكانوا يحملون بنادق غريبةَ الشكل ..

أما الأغرب فكان أنهم يضعون أقنعة الغاز على وجوههم ..

وهنا فهمت !

★ ★ ★

صحت فى (بودرجا) و(موفيرو) :

ـ « أسرعا ! فليضع كل منكما منديلاً على أنفه وفمه .. »

وأخرجت منديلى وأحكمت ربطه على أنفى ..

ثم مددت يدًا مرتجفة إلى حقيبتى .. أخرجت ثلاثة محاقن وتسعةَ أمبولات من (الأتروبين) ..

وبحركات هستيريةَ ملأت كل محقن بثلاثة أمبولات .. وأشرت إلى (بودرجا) كى يعطينى ذراعه .. فتساءل من وراء منديله :

ـ « لكن .. »

ـ « أسرع ! إنهم سيطلقون غازًا سامًا .. لا أدرى كفاءة ما سأفعله ، لكن (الأتروبين) هو الترياق المناسب لهذا الغاز .. »

وغرست إبرة المحقن فى ذراعه .. وأنا أردد :

ـ « أريد أن يكون (الأتروبين) فى دمنا لو أطلقوا غازاتهم .. »

هذا دم .. لا بأس .. أفرغت المحقن .. ثم طلبت من السائق أن يناولنى ذراعه وبيد مرتجفة أفرغت المحقن الثانى ..

ـ « أسرع يا (بودرجا) ! »

ومدت يدى له كى يفرغ المحقن الثالث فى عروقى ..

وانتهينا من العمل فتمددنا على بطوننا نرقب مسرح المعركة ..

وسرعان ما بدأ لعابى يجفّ وعيناى تزيغان .. وشعرت أن الدم يوشك على الانفجار من وجهى .. وقلبى ينبض كطبل ..

إن ثلاثة أمبولات من (الأتروبين) ليست بالشىء الهيّن .. وأعراض تسمم (الأتروبين) يعرفها كل طالب طبّ ، وكل مدمن مخدرات ممن يتعاطون (الضاطورة) ..

كان الحراس يفتشون فى عناية بحثًا عن المتسلل .. ورأيت أحدهم يدنو من موضع (بارساد) فينحنى كأنما لاحظ شيئًا ما ..

فى اللحظة التالية طارت قدم (بارساد) بحذائها الثقيل فى الهواء ، لتركل الرجل فى أسفل بطنه .. ثم ارتفعت القدمان واليدان لتحملا الرجل إلى حيث اصطدم رأسه بالسلك الشائك .. ولمحت نصل خنجر يلتمع فى الظلام الذى بدأ يسود ..

ثم .. لا شىء ......

وعلى الفور نهض الفرنسى يزحف على أربع مبتعدًا عن موضع الحادث ..

لا بأس على الإطلاق .. فالرجل فى الخمسين من عمره لكنه يقاتل كالأبالسة .. وإننى - بسنواتى التسع والعشرين - لعاجز تمامًا عن أداء ركلة كهذه ..

هل سيفعلها ؟

كان يحاول الزحف للحاق بنا .. وفكرت فى أن نهرع لنساعده .. (بودرجا) أوشك على ذلك ..

لكنى أوقفته فى حزم .. لن تزيد النتيجة على موت أربعة بدلاً من واحد .. ويجب أن يظل أحدنا حيًا ليبلغ (سافارى) بما وجدناه .. ثم إن (بارساد) فرنسى .. أى أنه يعرف فحوى فلسفة (سارتر) الوجودية : نحن مسئولون عن قراراتنا حتى النهاية ..

هو الذى اختار المخاطرة .. فليتحمل إذن نتيجة اختياره ..

إنه لم يستشرنا ولم يفعل ذلك لخلاص أرواحنا .. بل فعلها لأنه راغب فى الابتزاز .. وهو هدف لا يجدربنا أن نموت من أجله ..

دع (بارساد) يحاول النجاة .. فهو قادر عليها ..

★ ★ ★

وهنا بدأ الغاز ينتشر ..

بدأ على استحياء يتصاعد من أربعة أماكن متفرقة ثم بدأ ينتشر ويزداد كثافة ..

لقد فجروا بعض قنابل الغاز حينما أيقنوا أن هناك دخيلاً ..

وها هو ذا الغاز يتصاعد من الأرض كأنما بدايات ضباب .. غاز بلا رائحة ولا لون .. لكنه هو الموت بعينه ..

وبهمس مسموع صحت فى (بودرجا) من وراء منديلى :

ـ « فلنعد ! ربما يزداد أملنا فى الحياة لو ابتعدنا ! »

★ ★ ★

١٠- عودوا إن استطعتم !.

الكابوس الأبيض ينتشر لأعلى رويدًا رويدًا ..

ونظرت إلى الوراء نحو (بارساد) .. كان آتيًا نحونا جريًا وهو يلوّح ببندقيته ، ثم وقف فى منتصف المسافة وصاح فى مرح :

- « هل ترون يا أصحاب ؟! إنهم يبعدون البعوض لا أكثر ! »

وفى اللحظة التالية انفجر القىء من فمه .. وسرعان ما تهاوت ساقاه تحته كأنه دمية (ماريونيت) انقطع خيط الرأس فيها ..

وبعد ثانية ، هوى أرضًا ليغيب وسط الضباب الكثيف ..

فقط كنت ترى يدًا أو ساقًا ترتفع فى تشنج ثم تختفى ..

صحت فى (بودرجا) بوحشية :

- « فلنسرع .. وإلا هو دورنا ! »

وانطلقنا مبتعدين عن المشهد ......

★ ★ ★

كان (بارساد) هو الوحيد الذى يعرف اتجاهنا جيدًا ..

وأدركت أننا سنضلّ الطريق حتمًا ..

لكن يمكننا على الأقل استعادة بعض العلامات .. النهر .. الأشلاء .. العكاز على الأرض .. أسرة الغوريللات .. لا بد أن هذا سيقرّبنا من الخلاص جدًا ..

كنا نركض فى هستيريا والأغصان تدمى وجوهنا .. والفكرة المجنونة تطاردنى : هل هم وراءنا ؟ هل أطلقوا كلابهم ؟

لقد تصرف (بارساد) - ولا ألومه - بطريقة تعلن بوضوح أن معه آخرين .. وهم لن يتركوا هذا يمرّ ...

الآن فهمت سرّ أسطورة روح الأدغال ..

إن أفضل وسيلة لتحاشى الفضوليين هى إحياء الأساطير الغابرة .. وأسطورة روح الأدغال هى خير ما يصلح لذلك ..

أما الشجعان الذين لم يصدقوا الأسطورة فمن الخير معاملتهم كما تقضى قواعد الأسطورة .. لا بأس من أن

يفقدوا ساقًا أو ذراعًا ثم يعودوا إلى قومهم ليموتوا ، مبعثرين مع دمائهم علامات استفهام عديدة ..

ترى هل هم وراءنا الآن ؟

أجمل ما فى (الكاميرون) هو أن الأسئلة السخيفة تتم الإجابة عنها سريعًا .. وقد كانت الإجابة على سؤالى مختصرة جدًا ..

صوت نباح الكلاب من الخلف ..

★ ★ ★

قال (بودرجا) وهو يلهث :

- « فلنبق ملتصقين بالنهر .. »

سألته بدورى وأنا أركض :

- « هذا اقتراح جميل .. لكنى لا أفهم مغزاه .. »

- « إن التماسيح هناك .. والكلاب تخشاها جدًا .. »

- « جميل ! وإن كان الظلام قد بدأ يتغلغل ، والجو يبرد .. أعتقد أن هذا هو وقت عشاء التماسيح على ما أذكر .. »

- « ليس لدينا خيار .. »

وواصلنا الركض بينما صوت الكلاب يدنو ..

★ ★ ★

كان (موفيرو) أكثرنا حماسًا .. إذ سرعان ما سبقنا بساقيه الطويلتين .. إن السود عداءون ممتازون حقًا ، ولولاهم ما حققت (الولايات المتحدة) شيئًا فى أولمبياد ألعاب القوى ..

واختفى عن عيوننا بعيدًا عن النهر ..

سرعان ما سمعنا صوت النباح .. وتعالى لحظة ثم بدأ ينخفض ثانية .. والنتيجة الواضحة هى أن الكلاب مرت بنا لاحقة بذلك الأحمق .. إن غريزتها جعلتها تختار الهدف البعيد عن النهر ..

ويبدو أن غريزتنا فعلت نفس الشىء .. لأنى - أصارحك - لم أرتح كثيرًا للحركة الزائدة بين جذوع الأشجار فى النهر ..

وأدركت أنه من السهل جدًا أن نتعثر فى تمساح غاف غادر النهر من فوره .. أو يخرج أحدها فمه الهائل من الماء ليمسك بساق أحدنا .. كل هذا وارد ..

لهذا ابتعدنا عن النهر مطمئنين لابتعاد الكلاب ..

ها هو ذا عكاز (ماكوبكا) .. إننا ندنو من النجاة .. ندنو جدًا ..

وحبست أنفاسى ، ورحت أعد خطواتى ..

لا يمكن أن نفرّ بهذه السهولة .. مستحيل ..

★ ★ ★

وهنا توقف (بودرجا) وأشار إلى الأرض ..

هناك بين الأعشاب استقرّ شيء ما لم أدر كنهه ..

وحين تأملته جيدًا أدركت أنه النصف الخلفى لكلب أسود ضخم الجثة .. وبالتحديد من الكلاب التى كانت تطاردنا ..

نظرت لـ (بودرجا) بعينين متسعتين ..

إن من فعل هذا ليس هو صاحب الكلب بالتأكيد ..

ليس آدميًا حتمًا ..

وليس تمساحًا لأن التماسيح تجذب ضحاياها إلى الأعماق ..

إن من فعل هذا هو شيء ما ..

شيء يكمن فى الأحراش على بعد أمتار من هنا ..

★ ★ ★

وخرج لنا رجل يصرخ من الأحراش ..

وتبينا أنه هو السائق (موفيرو) .. وقد اصطدم بنا فى فراره المحموم ، فلم يكد يعرفنا ، وحين تكلَم أدركت أنه نسى الفرنسية .. فقد راح يولول بلغة (البانتويد) ويقول كلامًا كثيرًا ..



وهنا توقف (بودرجا) وأشار إلى الأرض ..
هناك بين الأعشاب استقر شيء ما لم أدر كنهه ..

سأله (بودرجا) عن شيء ما فأشار إلى الأحراش ، وعاد يهذى ..

- « ماذا يقول يا (بودرجا) ؟ »

- « يقول .. يقول إن روح الأدغال مزقت الكلاب جميعًا ، وكادت تفتك به .. إنها خلفه ! »

- « عمّ يتحدث ذلك المخبول ؟ »

وفى اللحظة التالية انفتح جدار الأشجار .. ورأيناها ......

* * *

١١ـ الهــول ..

في البدء لم أدر ما هي .....

كان الذعر قد أفقدني وضوح الرؤية ..

ثم بدأت أفهم .. فصرخت في (بودرجا) أن يطلق النار .. ورفعت بندقيتي وأطلقت طلقتي الأولى ..

★ ★ ★

دع لفطرتك العنان .. ولسوف تطلق الرصاص في الاتجاه الصحيح ..

★ ★ ★

لكني لا أجيد التصويب حتى على عمارة أنا بداخلها ..

★ ★ ★

دع لفطرتك العنان .. ولسوف تطلق الرصاص في الاتجاه الصحيح ..

★ ★ ★

كانت تلك الأشياء تمشي على قدميها الخلفيتين ..

لكن الـرأس والفكيـن والذيـل والظهـر المدرّع كلهـا تقول إن هذه تماسيح .. تماسيح تزيد فى طول قامتها عن ثلاثة أمتار ..

يوجد نقش فرعونـى شبيه بهذه الصورة .. ربمـا لـ (ملتهمة) التى تفترس الخاطئين فى العالم الآخر .. لا أذكر بالضبط ..

ولم أجد وقتًا للتذكر ..

لقد ألجمنى الرعب فرحت أطلق الرصاص باتجاهها .. ويبدو أن اثنين أو ثلاثة منهـا سقطت أرضًا .. لست متأكدًا ..

ربّاه ! إن هذا - بالضبط - هو جوّ الكوابيس ..

وسقط (موفيرو) أرضًا وهو يولول ..

عندها انحنى واحد من هذه المخلوقات ، والتقطه بين فكى التمساح العظيمين .. ثـم وقف نافشًا قامته وفريسته بين فكيه تتلوى .. المشهد الذى ذكرنى بمـا تفعله الديناصورات فى السينما ..

لكن المذهل هاهنا أن قوة الفكين كانت غير عادية .. فالوحش وفريسته متقاربان نوعًا فى الوزن والطول ..

وسرعان ما توارى الوحش وراء الأشجار ..

أعطيت (بودرجا) ظهرى ، ورحت أفرغ طلقات البندقية فى اتجاهات عشوائية .. وراح هو يفعل الشىء ذاته ..

وكان أن لمحت ثغرةً بين هذه الوحوش ، التى تزايد عددها إلى ما لا يقل عن عشرة ، فصحت فى (بودرجا) :

ـ « هلمَ ! سنحاول الفرار من هنا ! »

واندفعت أركض ، ومررت بصعوبةً جوار أحدها ، فأطلق فحيحًا مؤذيًا للآذان ومال بجذعه نحوى .. ثم انطبق الفكان بعنف ، فكان لهما صوت كباب خزانةً حديدية ينغلق عنوة ..

لحسن الحظ أن هذه الوحوش بطيئةً نوعًا .. مثلها مثل كل الزواحف التى تمشى على قدمين وتجرّ ذيلها وراءها ..

ولحق بى (بودرجا) بكثير من العسر ، ورحنا نركض بين الأشجار .

★ ★ ★

ـ « آى ! »

تعثّر الرجل وسقط على الأرض ، فهرعت أعينه ..

- « ماذا هنالك ؟ »

كان ثمة شئ على الأرض .. شئ له هيئة الإنسان ..

وفى الضوء الخافت عرفت أنه أحد هؤلاء القراصنة الذين كانوا يطاردوننا .. وكان مصابًا بفظاعة .. ولم أستطع أن أحدد تمامًا هل هو حىّ أم ميت .. فلو كان حيًا فهو إلى الموت أقرب ..

كان يرتدى حزامًا مليئًا بأجسام كروية لامعة ..

قنابل غاز .. هذا مؤكد ..

انتزعت ستة من تلك الأجسام التى كانت مخصصة لقتلنا من حزامه .. وناولت (بودرجا) ثلاثة منها ..

ثم مددت يدى فانتزعت جزءًا معدنيًا يبدو أنه كان المسئول عن تأمين القنبلة ، وحبست أنفاسى .. ثم طوحتها بعيدًا بعيدًا .. باتجاه الوحوش التى صادفناها وراء حاجز الأشجار ..

(بلومب) !. صوت انفجار مكتوم .. ثم لا شئ .. لكنى أدركت أن الغاز قد بدأ ينتشر ..

تساءل (بودرجا) :

- « هل تصلح هذه ؟ »

- « يجب أن تصلح .. إن الوحوش كائنات حيَّة على كل حال .. والآن لنبتعد عن هنا .. »

لم تكن هناك رياح .. لذا كان الحظ حليفنا وإلا صرنا في مأزق لعين .. ورحنا نركض دون هدف نحو ما ظننناه الخلاص ..

وخلف الأحراش على يميننا تحرك واحد من هذه الأشياء .. فصرخت في (بودرجا) :

- « (بودرجا) .. دورك ! »

وطارت القنبلة خلف حاجز النباتات المتشابك .. و(بلومب) ! بينما واصلنا نحن الركض ..

- « دكتور ! »

صرخ (بودرجا) حين برز من وراء الأشجار فكّان عملاقان أطبقا على ذراعه ، وعلى الفور رأيت واحدًا من تلك الكائنات يخرج لنا ، وهو يحاول انتزاع ذراع الأسود البائس ..

ودون تردّد أحكمت التصويب على الرأس - رأس الوحش طبعًا - وكان هذا سهلاً لأنه ضخم وقريب بما يكفى ، وأطلقت رصاصة واحدة وأنا أغمض عينى .. وكانت النتيجة باهرة .. لقد سقط المخلوق أرضًا

فاهتزت الغابة لصوت سقطته .. وسقط (بودرجا) جواره بعدما ارتخى الفكّان ..

- « مرحبًا بعودتك .. والآن انهض واجر ! »

وواصلنا الركض .. وأطلقنا بضع طلقات .. واستعملنا ثلاث قنابل أخرى ..

ولم نصدق أننا نجونا ، حتى إننا ظللنا نجرى داخل القرية كالبلهاء ، والأهالى يرمقوننا غير مصدقين ولا فاهمين ..

لقد كنا قريبين جدًّا من النجاة .. لكننا لم ندر ذلك .. ومن الأحراش دوّى الزئير الغاضب المجنون ......

★ ★ ★

١٢ـ لمسات نهائية ..

قال بروفسور (بارتليه) وهو يسترخى فى مقعده :

ـ « لقد فقدتم ٥٠ ٪ من أفراد الحملة .. وهذا يعتبر فشلاً بكل المقاييس .. لكنكم أزحتم الستار عن هذا اللغز المبهم .. »

قلت له وأنا أجرع العصير البارد الذى جلبه لى :

ـ « أى ستار ؟ أنا لم أفهم شيئًا حتى اللحظة .. »

قال وهو يتفقد بعض الأوراق أمامه :

ـ « إن هناك تنسيقًا حقيقيًا لإنتاج الأسلحة الكيماوية هاهنا ، وقد تمت الاستعانة ببعض العلماء الألمان والأمريكان .. هذا المعمل الذى تمّ بناؤه فى الأدغال فى الستينات قد نسيه العالم .. وقليلون فى (ياوندى) يعلمون أنه موجود ، وأنه تحت إدارة أحد علماء النازى الذى صار شيخًا فى الثمانين من عمره : الهر بروفسور (هانز زولبيرج) .. »

ـ « ظننت النازيين مطاردين فى كل أرجاء العالم ، ومن المستحيل أن يتعاون أمريكى معهم .. »

- « أحيانًا تطغى المصلحة على المبادئ .. إن (زولبيرج) هو أحد الحجج فى حرب الغازات .. ومن الخسارة فقده بالنسبة لمن يحلمون بتحويل العالم إلى مقبرة كبيرة .. »

ثم استطرد وهو يوقع شيئًا بقلمه :

- « الآن يقوم الجيش بتمشيط الغابة كلها .. ويبدو أن لجنة تفتيش من (الأمم المتحدة) قادمة .. ستكون هناك مادة لا تنتهى من الفضائح السياسية .. »

عدت أسأله فى حيرة :

- « وتلك الكائنات العجيبة ؟ التماسيح التى تمشى على قدمين ؟ هل قاموا بتربيتها ليمنعوا الفضوليين ؟ »

- « ليس إلى هذا الحد .. لقد كانوا يعلمون بوجودها .. وهذا السلك الشائك الذى وضعوه هو من أجلها خصيصًا .. إنهم أوجدوا تلك الكائنات لكنهم لم يتعمدوا ذلك ! »

- « لا أفهم .. »

ضيق عينيه ليبدو كلامه خطيرًا .. وقال :

- « أنت رأيت أن المعمل يتخلص من فضلاته فى النهر .. هذا خطر أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. ولكن .... »

- « النهر هو موضع تكاثر التماسيح .. فلو تصورنا أن التماسيح تتعرّض لهذا الخطر البيئى طيلة ثلاثين عامًا ؛ يمكننا أن نتصوّر حدوث تشوه للأجنة .. هذا التشوه - مع تراكم الطفرات كل هذه السنين - أدَّى إلى خلق سلالة من التماسيح تمشى على قدميها الخلفيتين ، ولها غدد سامة .. وهذه التماسيح بحاجة إلى الغذاء .. لهذا تقضى وقتها فى النهر بانتظار الفرائس ، فإن لم تجد تخرج إلى الدغل تجوّل فيه بحثًا عمن تصادفه من بائسين .. »

اقشعر جلدى لدى تخيل المشهد ، وقلت :

- « إذن .. قد تسبب العلماء دون قصد فى خلق أشرس حرّاس يمكن تصورهم .. »

- « بالتأكيد .. إن الطبيعة لا تمزح ولا تحب من يداعبها .. لكن هؤلاء العلماء لم يربطوا بين نشاطهم وبين (روح الأدغال) .. فقط كانوا يعرفون أن الغابة ملأى بوحوش غريبة .. ولو كانوا يعرفون حجم الخطر ما جازفوا برجالهم وكلابهم فى أثناء مطاردتكم .. وعلى كل حال لقد اصطاد رجال الجيش أكثر هذه

السلالة برصاصهم .. وقد أرسلوا لنا جثتين كى نشرحهما .. »

- « لكننا قابلنا أسرة غوريللا تنعم بسلام تامّ .. لِمَ لَمْ تهاجمها تلك الوحوش ؟ »

- « إن الغوريللا حيوان مرعب ذو هيبة .. قلما تهاجمه الحيوانات الأخرى .. لذا تجد الغوريللا تعيش فى سلام تام جوار الأسود والأفاعى والخراتيت .. فليس لديها ما تخشاه .. »

كان الشرح وافيًا أزال نقاط الغموض أو أكثرها .. لكنى كنت أملك المزيد من الأسئلة :

- « هل وجدوا (بارساد) ؟ »

- « نعم .. وكان ميتًا كصخرة .. أعتقد أنك لم تحبّه كثيرًا .. فلا تدّع الحزن على فقده .. »

هززت رأسى فى أسى :

- « كونى لم أحبّه لا يعنى أننى أتمنى هلاكه .. لقد كان شجاعًا لكنه هلك بسبب الجشع .. »

- « لقد هلك فى معركة .. هذا هو أقصى ما يتمناه من كان مثله .. فهو لم يُخلق للموت فى فراش مثلنا .. »

ثم أغلق الملف أمامه ، وقال بوجه صارم :

ـ « والآن .. انتهت إجازتك .. عُد إلى عملك والويل لك إن تراخيت لحظة ! »

★ ★ ★

كان البيض مدفونًا تحت الأوحال جوار نهر (كرا ـ آل) ..

وراحت أنثى تمساح تزحف حوله .. لم يكن هذا بيضها .. لكن إناث التماسيح تُعنى بالبيض ـ أى بيض ـ وتحرسه بعناية حتى يفقس ، وهى غريزة أمومة متطورة طالما أثارت حيرة علماء الزواحف ..

بعد قليل سيفقس هذا البيض .. لكن التماسيح التى ستخرج منه تختلف .. إن لها مزايا بيولوجية غريبة كالقدرة على حقن السمّ ، والقدرة على المشى على قدمين خلفيتين ، وما إلى ذلك ..

كنا نتمنى أن نتابع قصة هذه التماسيح الوليدة ، لكنها ليست ضمن نطاق اهتمامنا فى (سافارى) .

د. (علاء عبد العظيم)

أنجا واندیری

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيا ويظل طبيبا

٨٢٨٩

خاطفو الأجساد

يحكون - أولئك (البانتو) - عن (روح الأدغال) التى تنتزع الأذرع وتمزق الأقدام .. يحكون عن أماكن محرمة فى الدغل لايمكن أن يدخلها إلا مخبول .. يحكون عن سحر قديم .. وعن لعنة دائمة .. وعن أرواح غاضبة .. يحكون وما أكثر مايحكى (البانتو) ..

لكن الأمر - فى هذه المرة - لم يكن أسطورة على الإطلاق ..!



د. احمد خالد توفيق

الثمن فى مصر ... ١٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
الحريق